فانظر إلى تدبير قريش في مهاداة البطارقة ليكونوا معهم على المسلمين وليصرفوا النجاشي عن المسلمين، فإن هذا تدبير العقلاء والدهاة والمنكرين، ولا يمكن العاقل الكامل المتأني أن يفعل أكثر من هذا ليعرف عقول قريش وخصوم رسول الله ﷺ من العرب على غيرهم، ثم ما أغنى عنهم فيما راموه من الطعن على رسول الله ﷺ.

وانظر كيف لما ذكره المسلمون بأنا نعرف أمانته وصدقه وعفافه إلى غير ذلك هل تهيأ لعمرو أو لغيره من أعدائه أن يقدح فيه أو ينكره، ورسول الله ﷺ ابنهم وهم ولدوه وهم ربّوه ومعهم نشأ ومعهم أقام وسافر.

وباب آخر

[المعجزات والآيات يغني بعضها عن بعض]

أن معجزاته ﷺ والآيات التي نقضت العادات يغني بعضها عن بعض ويسد بعضها مسد بعض. فإن من استدل ببلاغة القرآن وفصاحته على نبوة النبيّ ﷺ عرف صدقه وإن لم يعلم ما في القرآن من الاخبار بالغيوب، ومن لم يستدل بالفصاحة واستدل بما فيه من التنبيه على ما في العقول يحصل عالمًا بنبوته وإن لم يستدل بالفصاحة ولا بالإخبار عن الغيوب، وليس كذلك النصوص على الأمور التي يعم فرضها ويشمل وجوبها، فإن بعضها لا ينوب عن بعض ولا يغني بعضها عن بعض، ولا بد من أن يحصل العلم بكل واحد منها ويكون مجيئ جميعها مجيئًا واحدًا. بيّن لك ذلك أن النص على القبة لا يغني عن النص عن شهر رمضان، والنص على الجمعة لا يغني عن النص على غسل الجنابة، وكذا في الخمر، والخنزير، والزنا، واللواط، والأمهات، والأخوات، والبنات، وجميع الفروض العامة الوجوب، فاعرف ذلك.

وإنما ذكرنا هذا لأن قومًا من الإمامية والرافضة ادَّعوا أن رسول الله ﷺ نصّ على إمامة رجل بعينه، وأوجب على جميع الخلق من الذكور والإناث والعبيد والأحرار والمسافرين والمقيمين والمرضى والأصحاء طاعته واعتقاد ولايته وموالاته.

obeikandl.com

فقيل له: لو كان الأمر كما يدعونه لجاء العلم بذلك مجيء أمثاله من الفروض العامة الواجبة، لأن قوله ﷺ: هذا إمامكم وهذا حجة الله عليكم بعدي يجري في شمول وجوبه مجرى نصّه على نبوته، وقوله: أنا رسول الله إليكم فهذا أعم في الفرض من القبلة وشهر رمضان، فإذا علمنا نصّه على القبلة وشهر رمضان فقد كان ينبغي أن يكون العلم بما يدعون أقوى.

قالوا: فاجعلوا ما يدّعيه من النص كالمعجزات التي هي غير القرآن .

قيل له: إن إخراجكم هذا النص عن نظائره وأمثاله من النصوص من أدل الدليل على ضعف يقينكم فيه ويأسكم من صحته، وكفى بهذا بيانًا منافيًا في بطلان ما يدّعونه.

وأيضًا، فقد علم كل من سمع الأخبار أنه ﷺ قد ادّعى النبوة وادّعى زن مع آيات ومعجزات ودلالات لا يرتاب بذلك من صدّقه ولا من كذّبه، فوازن ذلك ونظيره أن يعلم كلّ من سمع الأخبار أن رسول الله ﷺ قد نص النصّ الذى تدّعونه، وهذا فليس بمعكم ولا لكم، فقد صار ما صرتم إليه من أمر هذه المعجزات عليكم لا لكم.

وأيضًا، فإن هذه المعجزات التي مع النبيّ فيها ما يعلم كل من سمع الأخبار أنه عليه السلام قد ادّعى أنها حجة له في نبوته، ومنها ما اجتمعت الأمة عليه، وما تدّعونه فلا يعلم باضطرار ولا فيه إجماع، فهذا كما ترون في بعده مما تدعون.

وجواب آخر: أنه ينبغي أن تعلم أن كثيرًا من المعجزات التي ليست في القرآن يعلمها كثير من الناس كعلمهم بالقرآن، وهذا تجده فيمن كثر سماعه واشتدت عنايته بمبعث رسول الله ﷺ وبمقامه بمكة وبهجرته إلى المدينة وبسيرته وبمكاتباته وبمراسلاته وبغزواته، ولهذا تجد أبا الهذيل، وعمرو بن بر الجاحظ ومحمد بن شبيب، وأمثالهم من القدماء يدّعون في كتبهم التي صنفوها في النبوة في المعجزات التي ليست في القرآن العلم الضروري، وكذا

أبو عمر الباهلي، وقد ذكر أبو هاشم في نقض الفريد نحو هذا، فادَّعى في استسقاء النبى وفي إخباره عن المقتولين في غزاة مؤتة وفيما كان بين النبى ﷺ وأهل مكة من المراجعة في غلبة الروم على فارس علمي الاضطرار، فاعرف ذلك، ولتشتد عنايتك بهذه الأمور لتساويهم في العلم بذلك.

وبـــاب آخـــر

كتاب رسول الله ﷺ إلى ملك الروم كما كتب إلى كسرى ملك فارس. وكان كتابه إلى الملك الروم مع دحية بن خليفة لكلبي، وكان رسول الله ﷺ قد أمر دحية إلى أن يدفع كتابه إلى عظيم بصري ليدفعه إلى قيصر ملك الروم. فما قرئ على قيصر فيما يدعوه إلى الله وعبادته وحده، وأن لا يضن بملكه، وأن لا يتحمل آثام الروم مع إثمه.

وكان ملك الروم بالشام بحمص ودمشق يشتو في بلد ويصيِّف في بلد، فطال فكره في رسول الله ﷺ وفي كتابه، ووجد قلبه يخشع، فقال لأصحابه: التمسوا لي هل هاهنا من قوم هذا العربي الذي يزعم أنه نبيٌّ من أحد لنسأله عنه؟ فوجدوا بالشام رجالا من قريش قدموا تجاراً في الهدنة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش وفيهم أبو سفيان صخر بن حرب، فأشخصوا اليه وقد صار إلى بيت المقدس. فأدخلوا عليه وهو جالس في مجلس ملكه، وعليه التاج، وحوله عظماء الروم. فقال لترجمانه أيهم أقرب نسبًا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ فقال أبو سفيان: "نا أقربهم إليه، فقال ملك الروم: ما قرابة ما بينك وبينه؟ قال أبو سفيان: هو ابن عمي، وما كان في الركب يومئذ رجل من نبي عبد مناف غي أبي سفيان؛ فقال ملك الروم له: ادن مني، ثم أمر أصحابه من قريش فجعلوا خلف ظهره عند كتفه، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إني سائل هذا الرجل عن هذا الذي يزعم أنه نبيٌّ فإن كذب فكذبوه، فقالوا: نعم.

ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ فقال أبو سفيان:

هو فينا ذو نسب، فقل ملك الروم: فهل قال هذا القول فيكم أحد قبله؟ قال: لا، قال ملك الروم: فهل كان في آبائه من ملك؟ قال أبو سفيان: لا، قال ملك الروم: أفأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم. قال ملك الروم: أفيزيدون أن ينقصون؟ قال أبو سفيان: بل يزيدون، قال ملك الروم: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال أبو سفيان: لا، قال ملك الروم: فهل يغدر؟ قال أبو سفيان: لا، ونحن الآن منه في هدنة ونحن نخاف أن يغدر. قال ملك الروم: فهل قاتلتموه وقاتلكم؟ قال أبو سفيان نعم. قال ملك الروم: فكيف كانت حربكم وحربه؟ قال أبو سفيان: كانت دولا سجالا، يدال علينا مرة ويدال عليه الأخرى، قال: بما يأمركم به؟ قال أبو سفيان: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عن كل ما يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وأولئك الملأ من قريش يسمعون قول أبي سفيان، فصدقوه، فقال ملك الروم لترجمانه: قل له: إني سألت عن نسبه فيكم فزعمتم أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال هذا القول أحد فيكم قبله فزعمت أن لا، فقلت لو كان قال هذا القول منكم أحد قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه في الكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله وسألتك هل كان من آبائه ملك فزعمت أن لا، فقلت لو ك ان في آبائه ملك لقلت يطلب ملك آبائه. وسألتك أأشراف الناس ابتعوه أم ضعفاؤهم فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك هل يرتد أحد سخطه لدينه بعد أن دخل فيه فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حتى يخالط القلوب لا ينقضه أحد. وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون. وسألتك هل قاتلكم وقاتلتموه فزعمت أن قد

فعل وأن حربكم دولا، وكذلك الرسل قد تبتلى ويكون لها العاقبة. وسألتك عما يأمركم فزعمت أنه يأمر أن تعبدوا الله وحده وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء وأداء الأمانة، وهذه صفة النبيّ قد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم. وإن يكن ما قلت حقًا فيوشك أن يملك موضع قدميّ هاتين، والله لو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه. قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فأمر به فقرئ إلى أن انتهى منه إلى قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] قال أبو سفيان: فما قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم فما أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا، فما خرجت مع أصحابي وخلصت بهم قلت: لقد أمرَ أمر بن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه.

وقال أبو سفيان لأصحابه: والله لولا الحياء من أن يأثروا عني الكذب لحدثته عنه حين سألني، ولكني استحييت أن يأثروا عني الكذب فصدقت عه، ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئًا انتقص محمدًا فيه أخاف أن يؤثر عني غيرها حين قال لي: فهل يغدر قلت: لا، ونحن الآن منه في هدنة، ونحن نخاف أن يغدر.

فهذا هو أبو سفيان عدو رسول الله ﷺ إذ ذاك، وهذا كان قبل إسلامه وفي حال عداوته، والذين معه من قريش على حاله في العداوة، وهذا ملك الروم عاقل حازم.

وانظر كيف استظهر في أن يسأل عنه ﷺ أعداءه. فأحضرهم وهم لا يدرون ما يريده منهم، وسألهم عنه على تلك السبيل التي أستطلق واحداً منهم بحضرة جماعة بغتة على حال يبعد فيها المواطأة.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤.

ثم قول أبى سفيان لأصحابه: لولا خوفى منكم أن تأثروا على الكتب واستحيائى منكم لما صدقت ملك الروم عنه ولكذبت، وما قدرت أن أطعن عليه إلا بقولى: ونحن نخاف أن يغدر، ما قدرت على أكثر منن هذا. وخاف أبو سفيان أن لو كان وحده أن يسأل ملك الروم غيره فيتبين كذبه. وتأمل قول ملك الروم: هل يرتد أحد سخطه لدينه أى لعثرة أو زلة تكون منه. ولما أسلم أبو سفيان كان يعيد هذا الحديث ثم يقول: فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً أن أمر محمد ﷺ سيظهر حتى دخل الله قلبى الإسلام وأنا له كاره.

وجعل ملك الروم كتاب النبى ﷺ بين يديه، وراجع الفكر فيه، وأدام المسألة عنه ﷺ. فقدم عليه أمية بن أبى الصلت الثقفى، وحكيم بن حزام القرشى، فسألهما عنه، فأخبراه بحاله ودعوته على نحو ما أخبر به أبو سفيان وأولئك النفر، فقال لأمية بن أبى الصلت: آآمنت به؟ قال لم أكن لأومن لنبى إلا أن يكون من ثقيف.

وكان هذا الملك متخشعاً، ولما انكشف عنه جنود فارس مشى من حمص إلى بيت المقدس شكراً لله.

وكانت القصة المعروفة التى قدم ذكرها لك لقوله عز وجل: ﴿فرجع ملكهم إليهم فى علم الحديبية، وأرسل ملك الروم إلى رجل برومية يقرأ بالعبرانية ويعرف الكتب القديمة، فكتب إليه يخبره بورود كتاب محمد ﷺ عليه، وبما ذكر فيه، وبما وقف عليه حين سأل عنه. فكتب إليه صاحب رومية أنه النبىّ الذى كنا ننتظر لا شك فيه، فلما وقف ملك الروم على هذا أمر ببطارقته فجمعوا له فى دسكرة ملكه، فأمر بها فأشرجت عليهم بأبوابها، ثم اطلع عليهم من عليه له خوفاً على نفسه، فقال: يا معشر الروم، إنى قد جمعتكم لخير، إنه قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه، ووالله إنه النبى الذى كنا نتظر ونجده فى كتبنا، فهلموا فلنتبعه ونصدقه وتسلم لنا دنيانا

وآخرتنا. فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا بباب الدسكرة ليخرجوا فوجدوها مغلقة، فقال: كرّوهم علىّ، فلما رجعوا قال:

يا معشر الروم، إنما قلت لكم هذه المقالة لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث، وقد رأيت منكم الذى أسرّ به، فوقعوا له سجداً، وأمر بباب الدسكرة ففتحت لهم. وكان الناس يتحدثون بذلك، ويقول الروم: إن الملك قال هذا امتحاناً لأصحابه، ويقول غيرهم من النصارى: ما فعل هذا إلا لورود كتاب صحاب رومية عليه بما ورد. وقد كان بقى منهم من أرك خلافة عبد الملك بن مروان، غير أن الجملة التى لا ريب فيها عند أهل العلم إكرام ملك الروم لكتاب رسول الله، ومسألته عنه، ومدحه له، وقوله إنه للنبى الذى كنا ننتظر، وما صنعه فى الدسكرة، وما قاله لبطارقته والروم بعد ذلك من محاسنها وحزم ملوكها، والعلم بذلك كالعلم بكتابه عليه السلام إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمى، وتمزيق كسرى للكتاب واستخفافه به وبرسوله. وكانت كتبه ﷺ فى أكارع الأدم يكتبها جهاراً بعلم عدوه ووليه، وينفذها جهاراً، ويعلم العدو والولى بما يكون من الجواب.

فتأمل الحال فى ذلك وحال الملوك فى زمانك، الذين يزعمون أنهم من ولده، وكيف يسترون مكاتباتهم عن أوليائهم فضلاً عن أعدائهم، ويكتمون ذلك بجهدهم، ويعظمون الكتاب ويزينونه ويصورونه ويهولونه، ويضمنونه المخاريق والخدع، هذا مع تسترهم بالإسلام، وأنهم من ولد النبى ﷺ والأئمة الذين وصى إليهم النبى ﷺ، ويكون مع تلك الكتب الأموال والهدايا والتحف العجيبة، ويذكرون للمكتوب إليه ملكهم، وأنهم قد وجدوا ذلك فى كتب الحدثان وفى الملاحم والأبار، ويطمعون المكتوب إليه فى المشاركة فى الملك، وإن كان ملكاً قالوا نقرك ونزيد فى ملكك، ويحلفونه فى كتمان ذلك وكتمان ما يلقونه إليه،

ويهولون عليه بأن فلاناً الملك، وفلاناً الأمين، وفلاناً السلطان، قد أجابونا، وهم أهل دعوتنا، وقد عرفوا حقيقة ما قلناه لهم فبادروا فى الإجابة لتكون لكم الوسيلة قبل ظهور الدعوة، وقبل ملك الإمام لجميع الأرض، وقبل انغلاق باب التوبة، وإنما يكتبون بهذا إلى الملوك الذين هم فى الإسلام، والذين يزعمون أنهم شيعة، وقد تواطئوا لهم من كل وجه، وقل لاذوا برسول الله ﷺ، وأظهروا الاعتصام به، ويقولون: السنة السنة تكون الغلبة، وظهور الأمر على جميع الأرض، فلا يكون لذلك أصل، ويموت من وعدوه ذلك، ويتناسى، ويبتدئون فيسخرون بقوم آخرين فيبطل ذلك ولا يكون، ويبتدئون بقوم آخرين، ويموت ذلك الذى قالوا لهم إنه الإمام الذى يظهر، ويدعون إلى آخر ويموت الذى بعده، ثم الذى بعده كذلك.

كما وعدوا نصر بن أحمد أمير خراسان، ومرداويج الحالى، وأسفار بن شيرويه، وابن أبى الساج، وأمثالهم، ثم من بعدهم. ومات أولئك الذين كانوا يقولون فى كل واحد منهم فى زمانه أنه الإمام الذى يقوم ويغلب ويملك الأرض كلها من أولها إلى آخرها.

فتأمل وفكر، فبالفكر تكون البصائر. وإنما عرض هذا فى ذكر كتبه ومكاتباته فضلاً على ما تقدم لتعلم أن أحواله كلها محفوفة بالعصمة، مكنونة بالحجة الظاهرة والبينة القاهرة، وإنما ذكرنا أحوال هؤلاء الملوك الذين فى زمانك بعد ذكر من تقدم من ملوك بنى أمية وبنى العباس، لأن هؤلاء معك وفى زمانك، وهم يدعونك ويدعون الناس كلهم، فتأمل أحوالهم، فإنك إن ذهبت عما فى زمانك كنت عما فاتك زمانه أذهب.

ولما ذكر الله عز وجل نعمه على بنى آدم بما سخره لهم حين قال: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ إلى قوله ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ

سَبِيلاً﴾[1] وهو كما قال عز وجل، فإن العاقل إذا ترك الفكر فيما يشاهر وذهب عن معرفة النعم الى عليه فى الدنيا، فهو عما أراده الله به من نعم الآخرة أذهب.

ومن جنس ما تقدم أن جرير بن عبد الله البجلى سمع بأرضه من رجل تاجد من اليهود قدم عليهم بمتاع يشترونه منه: لا والذى أنزل التوراة على موسى، فقال له جرير: من موسى هذا؟ وما التوراة؟ فقال اليهودى: موسى بن عمران رجل من بنى إسرائيل أرسله اله إلى بنى رسرائيل وأنزل عليه كتاباً يسمى التوراة، فقال له جرير: فأخبرنى خبره، فقص عليه شأنه، فقال له جرير: فهل أرسل الله أحداً قبله، قال: نعم، فقص عليه قصة نوح، قال له: فهل أرسل الله بعد نوح أحداً، قال: نعم، فقص عليه قصة إبراهيم، فقال له جرير: فهل غير هؤلاء؟ قال: كثير، فجعل يسم له الرسل، فقال له جرير: بأى شئ يرسلون، وما يقال لهم؟ قال: يرسلون أن يعبد الله وحده، وبالصدق، وأداء الأمانة، وغير ذلك، قال له جرير: فكيف صنع قومهم بهم؟ قال: آذوهم وضربوهم وقتلوا بعضهم، ودخل فى دينهم ناس من قومهم؛ وجرير يستزيده من حديثهم ويعجب، ويعجب قومه من ذلك، وهو شئ ما سمعوا به أصلاً، ولا سمعوا أسماء هؤلاء الرسل، فضلاً عن غير ذلك.

فقال جرير: والله ما سمعت بهذا قط وال ظننته، فلعل محمداً هذا القرشى رسول مثل هؤلاء، فقد سمعنا خبره ثم عزب عنا ذكره، وقد خفى علينا أمره. ثم شاور جرير من يعقل من قومه فى الرحيل إلى النبى ليسمع منه وينظر فيما يقوله، فقيل له: إنه قد ساجل قومه الحرب ولا يؤمن عليك، ومن الرأى أن ينتظر الأشهر الحرم فيخرج للحج مع الحاج؛ فلما دخلت الأشهر الحرم رحل مع قومه فوافى إلى عكاظ وإلى ذى المجاز وإلى منى،

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٦.

وصدروا إلى مكة، فعمدوا إلى مجلس من قريش أكثره كهلاً وأبداه شرفاً، فجلسوا إليهم، وتحدثوا معهم، وياسطوهم فى الحديث. فقال جرير: ما فعل صحابكم هذ، الذى يزعم أنه رسول الله؟ قالوا: فعل شراً، شتمنا وشتمنا، وفعل وفعل، ، ثم حاربنا فقتلنا وقتلناه، فقال جرير: وما نقمتم عليه؟ نقمنا سحره وكذبه، قال جرير: فكيف علمتم أنه ساحر؟ قالوا: سحر قول فتياننا حتى أتبعوه وعصونا، قال جرير: ما علمتم إلا بهذا؟ قالوا: لا، قال جرير: فما دلكم على كذبه، هلى حدثكم شيئاً فوجدتموه باطلاً؟ قالوا: لا والله، إلا أنه يكذب على الله، ويزعم أنه أرسله إن آلهتنا باطل، وأن سلفنا ضلال من هل النار، قال جرير: دعوا هذا فماذا يقول سوى ذلك؟ قالوا: والله ما يقول إلا حسناً، إنه ليأمر بصلة الرحم، والكف عن المحارم، والخلق الجميل والعفو عن المسئ، وأخلاق سوى ذلك جميلة لو قالها من عند نفسه ولم يزعم أن الله أرسله بها ما أنكرنا عليه، قال جرير: فلعله رسول الله، فقد أرسل الله رسلاً قبله: إبراهيم ونوحاً وموسى، قالوا: أين هو من موسى؟ قال جرير: لمه؟ فأنتم خير وأكرم أم قوم موسى؟ قالوا: لا بل نحن، فما أنكرتم أن يرسل الله منكم رسولاً كما أرسل من قوم موسى؟ وجادلهم عنه ﷺ. فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ساحر وكذاب، ثم قالوا لجرير: ألقيته قط؟ قال: لا والله ما لقيته قد ولا كلمته، ولكن هذا هكذا فغلظوا فى شتم رسول الله ﷺ وسبه، قال جرير: أنتم أعلم. ورجع إلى قومه وعشيرته بمن معه؛ فجاء قومه يسألونه عن الموسم، وعن العرب وما كان بينهم فحدثهم بذلك، ثم قال: وغير ذلك قالوا: وما هو: فحدثهم عن رسول الله ﷺ، وأنه بيثرب، وما كان من قريش، وأنه ما وجد عند عدوه مطعناً غير السفاهة، ووجدت قومه قد خافوه، فهل لكم فى خبر، قالوا: ما هو؟ قال جرير: قد أرسل الله قبله رسلاً، فهل لكم أن أخرة قبله وترسلوا معى رسلاً تأمنونهم وتثقون بعقولهم وتطمئنون إليهم وإلى خبرهم، فنأتيه ونسأله، فلا يخفى أمره علينا، إن كان صادقاً سالمناه وآمنا به ودخلنا فى دينه وأخذنا لكم منه سبباً وحبلاً، وإن كان غير ذلك أريناكم برأينا.

قالوا: ما بما قلت بأس، فأرسلوا معه من اختاروه، وخرجوا حتى قدموا عليه المدينة؛ وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه: أتاكم خير ذى يمن، على وجهه مسحة ملك؛ وكان جرير جميلاً سيداً وسيماً. فلما قدموا المدينة نزلوا منزلاً ثم لبسوا أجمل ثيابهم وخرجوا، فلقوا رسول الله ﷺ، وجلسوا إليه، وكلموه، وساءلوه عما يقول وما يدعى، وما يدعو إليه. فذكر ذلك وشرحه، وال القرآن، وبيّن لهم. فقال جرير: رضينا منك، وأسلم وأسلم أصحابه ومن معه.

فتأمل ما فى هذا فإن بجيلة هى حى عظيم وقبائل كبيرة يتجورون مكة ما سمعوا باسم موسى فضلاً على أن يعلموا هل أرسله الله بل لم يعلم جهلهم وأكثرهم أن هناك من يدّعى له الرسالة والنبوة، وهذا قد يكون من قلة الطلب والمساءلة، ومن قبل عدم من يقصد الناس ويدعوهم إلى ذلك ويذكرهم به، ومن قبل غير ذلك مما يطول شرحه.

وقد كان أبو الحسن على بن محمد بن بكر الاسفذانى صاحب أبى على رضى الله عنهما، حج، وكان كثير الحج، فأسرته القرامطة مرة ثم أرسلوه، فحصل فى البوادى، فأجرى ذكر رسول الله ﷺ فلم يعرفوه، وقالوا: ما سمعنا به، فتعجب من ذلك وهذا أبو الحسن كان كبيراً من فقهاء أصحاب أبى حنيفة، وكبيراً من أصحاب الحديث، غزير الرواية زاهداً، واعظاً مجيداً، وكان خلا بأبى الحسن الكرخى رحمة الله عليهما، وكان يلقى جبابرة الملوك من البريديين والديلم بالموعظة، ويصدقهم ويعظهم، وله كتب كثيرة فى العلم، ولعل أكثرها فى خزانة الوقف بالرى، وكان يكثر تعجبه وهو فارسى من بلاد العجم، ومن أهل عسكر مكرم، وهو أعلم الناس أو من أعلمهم و[1]بنبوة رسول الله ﷺ وبآثاره وبأخلاقه وشريعته، وقومه من العرب وجيرانه فى البلد لا يعلمون شيئاً من ذلك، وهذا إنما صار كذلك لترك السلطان العناية بالدين وإرسال

---

(١) هكذا فى المخطوط والواو زائدة.

والفقهاء فى البوادى والآفاق كما كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك وخلفاؤه ولا يخلون القبائل من مقرئ وفقيه وساعى، ومع هذا فابتلى الناس بيحيى الطحانى وبأبى سعيد الجنابى وولده وأمثالهم من القرامطة فى جزيرة العرب، فزعموا أنهم شيعة ودعاة إلى المهدى إبن رسول الله ﷺ، فقتلوا المسلمين ومن يقيم شريعة الإسلام، وسبوا المسلمين، وغزوا مكة وغيرها، وأحرقوا المصاحف، وصنعوا ما هو معلوم، فلهذا خفى على أولئك ذكر رسول الله ﷺ وإذا تدبرت هذا إن دارت بصيرتك بصدق قوله فى قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

فهذا جرير وبجيلة يقولون: ومن موسى، وما التوراة؟ وإن كنت قد علمت بعقلك بما تقدم لك، أنه ﷺ ما عرف ما أقصه من قصة نوح وغيره من الأنبياء إلا بالوحى، وأنظر كيف صنع جرير وبجيلة فى معرفة أخبار رسول الله ﷺ، فإنهم ابتدؤوا فسألوا عنه أهل بلده، وأهل بيته، ومن رباه، ومن ربى معه، وأعداءه، ومن ناصبه وطلب عثراته، فعرف ما عندهم، فلم يجد عيباً ولا مطعناً، فرجع إلى قومه بمن معه فأخبروهم بما سمعوا، ثم تخيروا عقلاءهم وفضلاءهم فأرسلوهم إلى المدينة فيألوه وسمعوا منه، وهذا غاية ما يفعله العاقل الحازم المرتاد الطالب.

فتأمل هذا وما قبله من تلك المحافل والمقامات والمواطن التى تقدم لك ذكرها، مما كان بمكة وبأرض العرب وبأرض الحبشة وبالشام عند ملوك الروم وبالعرق عند ملوك الفرس، وأحضره فهمك، وواصل درسه، وتدبر قول قريش لجرير وبجيلة فى رسول الله ﷺ أنه ساحر، فأنهم لما سمعوا القرآن ورأوا غيره من آياته ودلالاته ﷺ فلم يمكنهم دفعها بالحجة قالوا: سحر وهذا ساحر، وإنما يقولون ذلك لما لطف وغمض ودق وأخذ بالعقول: هذا سحر

---

(١) سورة هود آية ٤٩.

وهذا ساحر ولهذا قال أبو جهل حين خرجوا ومعهم القافة فى طلب رسول الله ﷺ حين هاجر ومعه أبو بكر فى قصة الغار: والله إنى لأراه معنا فى بعض هذه الشعاب يرانا من سحره وما نراه، ولما نزل قوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] سأل ﷺ عمه أبا طالب ليجمعهم له، فكان يراجعه ويدافعه، ثم أجابه لما يعرف من صدقه ولشدة محبته له فجمعهم، فلما حضروا، أطعمهم حتى امتلئوا شبعاً من يسير الطعام، وسقاهم حتى أرواهم من عس لبن، ثم ابتدأ بدعوتهم وإنذارهم لأن الله أمره بذلك، وأنه قال للملك: إنى إن فعلت ذلك تفقل قريش رأسى فقل الخبزة، فقال لى: يال محمد، إنك إلا تفعل ذلك تعذب، وإن الله قد اتخذ لك جنداً تبعثهم، وإن الله ينزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان، وإن قريشاً والعرب ليست على شئ من الله ولا الله، وإن الله يقول: «إنى خلقت عبادى جميعاً حنفاء مسلمين، وجعلت ما يحلهم من رزق فهو لهم حلال، فأحالتهم الشياطين على دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، وأمرتهم أن لا يغيروا خلقى، فقطع أبولهب كلامه وأمر أصحابه بالقيام وقاموا وخرجوا، وتحادّوا أنه أشبعهم وأرواهم من ذلك الطعام والشراب اليسير الذى لا يكاد يشبع الواحد ولا يروى، فقال أبو لهب، هذا من سحره، وهذا بعض سحره، كالذى قالوه لجرير وأولئك الرهط من بجيلة».

وهذا المقام الى كان له مع قريش كتلك المقامات التى قد تقدم ذكرها من شأن الإسراء وقصة الروم وغير ذلك، لا يرتاب بها العلماء ولا يشكون فيها. وقد علمت أن إسلام الأنصار كان فى الاستقصاء وطول السؤال والمراجعة أشد من استقصاء جرير وبجيلة، وفى نحو ذلك كان إسلام قبائل عبد القيس، وهذه كانت سبيل قبائل طئ، وتأمل أحوال قريش من أعداء رسول الله ﷺ فيما كان يظهر من آياته، ويصدق من أقواله، كيف كان يرجع

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٤.

بعضهم إلى بعض فى الرؤساء خاصة، إن هذا الرجل ما تزل له قدم، ولا يخلف فى شئ قاله، ولا يغى كيدنا له شيئاً، متأسفين ومتحسرين على ما يخيب من سعيهم، فيقول بعضهم لبعض: فلعله نبى كما يقول، فنحن جميع وهو وحده، ونحن أغنياء وهو فقير، فيقول بعضهم لبعض: هذا من سحره.

ولما دخل سعد بن معاد الأنصارى رحمة اله عليه مكة بعد هجرة النبى ﷺ إليهم، نزل على أبى بن خلف وكان خلاً له، فأراد أن يطوف بالبيت فخاف عليه ابن خلف قريشاً، فقال له: اصبر إلى أن يخف الناس، فلما خفوا خرجوا وطاف، فأبصره أبو جهل فقال له: أتطوف بالبيت آمناً وقد آويتم محمداً، لأفعلن وأفعلن، فخاصمه ابن معاذ وجادله ولامه فى عدواته لرسول الله ﷺ، وذكر عذرهم فى قبولهم منه ﷺ، وأنه جاءهم النور والهدى، وأنكم على ضلال فى تكذيبه، فلم يكن عنده ولا عند قريش حجة ولا ما يشبه الحجة، من ذكر زلة أو هفوة يصرفون سعد بن معاذ والأنصار عنه مع حاجتهم إلى ذلك، واستطال سعد على أبى جهل، فقال له أبىّ بن خلف: أترفع صوتك على أبى الحكم وهو سيد البطحاء، فقال له سعد: أما أنت فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يقتلك، فراعه ذلك، ودخل على إمرأته كئيباً، فقال لها: أما تسمعين ما قال أخى اليثربى، زعم أنه سمع محمداً يقول إنه يقتلنى وما كذب محمد قط. فلحق المرأة من الرعب أكثر مما لحق أبياً؛ فلما كانت بدر، قال له أو جهل: اخرج معنا، فقالت له إمرأته: اذكر ما قال أخوك اليثربى، فكره الخروج، فما تركه أبو جهل حتى أخرجه، فقتل كما قال رسول الله ﷺ.

والذى بدأنا به وأوردنا، خوض أهل مكة فى عداوته ﷺ واجتهدهم فى صرف الناس عن اتباعه بكل وجه وحيلة فلا يجدون مطعناً، واتصل بهذا، أخباره ﷺ عن قتل أبىّ بن خلف فكان كما قال، وهذا آية أخرى.

وكم لاموا أنفسهم فيما بينهم لما نزل بهم ببدر، وقد كانوا خرجوا واثقين بالظفر برسول الله ﷺ وأصحابه لقلتهم وضعفهم، ولقوه قريش بالكراع والسلاح والمال وكثرة العدد، وكم تلاوموا فيما بينهم حين رجعوا من أحد وقد

خرجوا فى ثلاثة آلاف، وهم لا يشكون أنهم يظفرن برسول الله ﷺ وأنهم يسبون المدينة، ومعهم أبو عامر الراهب كما تقدم لك.

ولما رجعوا مع الأحزاب والخندق وقد جمعوا تلك الجموع، فنزل بهم من الريح والرعب ما قد تقدم لك ذكره، تجمع كل قوم إلى رئيس وصاحب يتعجبون من ذلك، فقال عمرو بن العاص للذين اجتمعوا إليه: والله إنى لأرى أمر محمد يعلوا علو المنبر، فتشاوروا فيما يصنعون، فقال عمرو: إنى قد رأيت رأياً، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشى - وكان له صديقاً- فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى فإنا أن نكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير. وصاروا إلى النجاشى، فأقاموا عنده وورد على النجاشى عمرو بن أمية الضمرى رسول الله ﷺ، وأفاضوا فى ذكر رسول الله ﷺ وما أتى به وما دعا إليه، فأجمعوا على حسن ذلك، وعذلهم النجاشى فى إبطائهم عنه، فما وجدوا فى رسول الله ﷺ غميزة يذكرونها أو يحتجون بها، فكروا راجعين إلى مكة. وقد رحلوا إلى النجاشى غير مرة، وكانت له معهم فى هذا الشأن محافل ومجالس.

ولقد قال خالد بن الوليد بن المغيرة لأصحابه وأهل أنسه قبل إسلامه وقبل هجرته: والله لقد استقام الميسم، وإن الرجل لنبى فحى منى؟ ثم هاجر وأسلم بعد الحديبية، وهاجر بعده عمرو بن العاص وأسلم، وكان منهما ما هو معلوم.

ولما قسم رسول الله ﷺ شعره على أصحابه فى حجة الوداع، ما زال خالد ابن الوليد يضرع ويقول: يا رسول الله ناصيتك، يا رسول الله ناصيتك، فيها أرجو النصر فنادى أبو بكر الصديق فى الناس متعجباً ومعتبراً ومنبهاً، وقال:

أيها الناس، هذا خالد بن الوليد الذى لقينا منه ببدر وأحد والخندق والحديبية ما لقينا، انظروا إليه وإلى بصيرته.

ولما قسم رسول الله ﷺ غنائم أرطاس، وأعطى المؤلفة ما أعطاهم، قال عيينه بن حصن: أنا ابن الأشياخ، أنا عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، فقال ﷺ: خير الناس يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم؛ وكان ﷺ يقول فى عيينة بن حصن: الأحمق المطاع، وكان من أمره معه، ومع الأقرع ابن حابس، والعباس بن مرداس المسلمى، وتلك المؤلفة ما هو معلوم.

ولما أعطاهم من تلك العناية ما أعطاهم، وحرم السابقين والبدريين والمهاجرين والأنصار، قال قائل من الأنصار: نظهر على هذه الغنائم بأسيافنا ويأخذها هؤلاء دوننا، وبلغه ذلك، فأرسل ﷺ، وجمع الأنصار، وقال: أخبرونى عنكم معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى؟ قالوا: بلى، قال: ألم تكونوا أعداء فألف الله بين قلوبكم بى؟ قالوا: بلى، قال: فما مقالة بلغتنى عن بعضكم؟ وأعاد عليهم القول، فقالوا: يا رسول الله إيما كان، هذا من بعض أحداثنا، فإما نحن فراضون. فقال ﷺ: هذا مال تألفت به قلوب هؤلاء الذين عهدهم بالإسلام حديث، وببصائرهم ضعف، أما ترضون أن يرجع الناس باشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رجالكم؟ قالوا: بلى، رضينا؛ وبكوا، فقال رسول الله ﷺ: لو شئتم أن تقولوا أتيتنا طريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك، لقلتم، فزاد بكاؤهم وخشوعهم، وقالوا: المنّة علينا فى ذلك لله ولرسوله.

وكم قد كان مثل هذا، فتأمل هذا المقال والفعال للفريقين من المؤلفة ومن الأنصار، ففيه العبرة الكبيرة والبصائر النيّرة، وتأمل سيرته ﷺ فى السابقين والبدريين، لأهل بيته، وفى ولده وأزواجه، كيف حرمهم الدنيا وحماهم منها؟ وكيف ملأ قلوبهم بالوعيد والمخاوف؟، وكيف جعلهم أسوة الناس كلهم فى الأحكام والقصاص والحلال والحرام، وفى أن من حازت شهادته من العجم والموالى على الحاكة والحجامين والزيالين، حازت شهادته على القرشيين والهاشميين والسابقين والبدريين، وكيف حرم الصدقات على أهل بيته وأوجبها فى أموالهم للناس، وكيف شرع وبيّن أن الخطأ والزلل جائز

على كل واحد من أصحابه وأهل بيته وخاصته، ووصى بمراعاة أفعالهم وأقوالهم وأن يذكروا وأن يعلموا وأن يتفقوا حين جعلهم قواماً على المسلمين، ووكلاء وخدماً، لما علم الله عز وجل أن الأتقياء والأولياء والأذكياء من قريش، أحرص على رشاد المسلمين وصلاحهم من سائر الناس، فقال فيهم: استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، وتلك الأقوال التى قد تقدم ذكرها، فأحضرها فهمك وتأمل ما فيهام.

ثم لم يجعل العصمة والأمانة من الزلل فى دين الله إلا له وحده إلى يوم القيامة، لا يشاركه أحد فيه، ولا يقوم مقامه ولا يسد مسدّه، فقبلوا كل ذلك منه، وخضعوا له، وتدينوا به، وأجابوه إلى ذلك على تلك الشرائط التى تقدم ذكرها، لتعلم بمكان الإعلام والدلائل والبراهين التى انتقضت بها العادة فبهرت عقولهم، وقد كانوا من أعظم الناس نخوة وأنفة وحمية، ثم لا تجدهم لما صحبوه واختصوا به وأجابوه حدث لهم نبوة عنه، ولا نفور منه، ولا طعن عليه فى دينه لشئ وقفوا عليه، أو وقف عليه واقف، أو استراب فيه مريب فى شئ من أحواله، لا من الرجال ولا من النساء، ولا من الخدم، ولا من الزوجاج، لا فى حياته ولا بعد وفاته، وأزواجه عدد كثير وهن ضرائر، وفيهن بنات أصحابه وخاصته، وفيهن بنات أعدائه.

فإن قيل: أو ليس الرافضة تدعى أنه قد شهد بالعصمة لابن عمه علىّ ابن أبى طالب، وأنه كالأنبياء فى أن الخطء والزلل لا يجوز عليه البتة فى حال من الأحوال، ولا يلحقه سهو ولا غفلة، وأنه يسدّ مسدّه ويقوم مقامه، وأنه، مفزع الخلق، وكذا ولده بعده، فيهم من يقول ثلاثة، ومنهم من يقول سبعة، ومنهم من يقول اثنا عشر، ومنهم من يقول أكثر.

قيل له: إنا لم نقل أن هؤلاء ادّعوا هذا، ولا أخبرنا عنهم، وإنما أخبرنا عن شرعه ﷺ وسنته ووصاياه، لا عما يقول هؤلاء. وقد تقدم لك الأدلة على بطلان دعاويهم، وأن أصحابه كلهم من أولهم إلى آخرهم أطبقوا على ذلك

قرناً بعد قرن، ثم الذين يلونهم ثم التابعين لهم، ثم الذين يلونهم فى القرون والأعصار، إلى زمن هشام بن الحكم، فإنه ابتدع هذا القول، ثم أخذ عنه الحداد، والوراق وابن الراوندى، وأرادوا به كيد رسول الله ﷺ وإفساد دينه، وتشكيك الناس فى نبوته، وأحوالهم فى شدة عداوته معروفة، وقد تقدم لك بيان ذلك والبرهان عليه بما لا حاجة لك إلى إعادته.

وقد ذكر أبو علىّ رحمه الله طرفاً من ذلك فى «التفسير» وفى «نقض الإمامة على ابن الراوندى»، وذكره غيره من العلماء. والعلماء يقولون إن من قال: إن رسول الله ﷺ جعل مفزع الدين أرسل إليهم، واتباعه فى العلم بالحلال والحرام إلى واحد، كمن قال ما أرسل إلا إلى ذلك الواحد، ولا آمن به ولا اتبعه إلا ذلك الواحد، ولا زكى ولا مدح إلا ذلك الواحد، ولا شهد بالجنة إلا لذلك الواحد، قالوا: وإنما تكلم من قال إن بعض أصحابه أعلم من بعض وأوعى وأحفظ، وأنه ما استخلف على أمته واحداً بعده كما استخلف أبو بكر ويدله على ذلك.

فأما من قال: ذلك القول فسبيله ما ذكرنا، ونظذره ما مثلنا. وهؤلاء يدعّون أن رسول الله ﷺ بين عصمته وعصمة ولده، ونصّ لأمته على ذلك، وأداه لهم بحسب وجوبه على كل واحد منهم من عبد وحر، وذكر وأنثى، وحضهم على ذلك، وأن الأعلام والمعجزات كانت تظهر عليه وعلى ولده، وأنها ظاهرة إلا على إمام الزمان الذى هو معنا وحجة علينا.

وقد علم كل عاقل سمع الأخبار أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه، قد ابتلى من الخلاف والتضليل والتخطئة والإكفار ما لم يبل بمثله أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، فما احتج لنفسه بأنه معصوم لا يجوز عليه الخطأ، ولا أن النبى نصّ عليه ووصى إليه واستخلفه، ولا بأن المعجزات ظهرت عليه مع حاجته إلى ذلك، ولا احتج له من يخام عنه فى زمانه مثل الحسن والحسين، وعبد الله بن العباس، وقيس بن سعد وأبى أيوب الأنصارى، وصعصعة بن صرخان، وعدى بن حاتم، وعثمان بن حنيف، وسه بن حنيف،

وجهر بن عبد الله. وعمران بن حصين، وشريح بن هانئ، والأحنف بن قيس، وأبى الأسود الدؤلى، وغيرهم ممن أرسلهم إلى من خالفه من أهل البصرة، ومن أرسله إلى أهل الشام، ومن أرسله إلى الخوارج، ومن أرسله إلى أهل الكوفة يستنفرهم حين قعدوا عنه بمشورة عامله أبى موسى، وكان يجادل عنه بحضرته من كان يرد عليه من رسل معاوية، ويجادل الخوارج، لا يعرفون شيئاً مما يدعيه هؤلاء بوجه من الوجوه، ولا يرجع فيما يحتج به رضى الله عنه إلا إلى الإجماع، فيقول: وجبت طاعتى كما وجبت طاعة أبى بكر وعمر وعثمان، لأنه قد بايعنى من بايعهم، وإنما الأمر فى الإمامة إلى السابقين والبدريين من المهاجرين والأنصار، لا إلى الطلقاء وأبناء الطلقاء، ويحتج بأنه من أهل الشورى التى وضعها عمر، ويحتج فى التحكيم بالقياس، ويرده إلى الاجتهاد، ويقول: قد أمر الله بإرسال الحكمين فى شقاق يقع بين المرأة وزوجها وفى أرنب تصاب فى الحرم قيتها ربع درهم، فكيف بإمامة قد أشكلت على المسلمين، ويشير عليه ولده وأهله وأصحابه وخاصته الذين قدمنا ذكرهم وغيرهم، ويقولون: له: الرأى أن تفعل كذا وقد فعلت كذا ولم يكن الرأى أن تفعله، كما قال له الحسن ابنه وابن العباس حين قبل البيعة، وكما قال له قيس بن سعد فى شأن مصر، وحين قال له الأحنف فى شأن التحكيم، ففى آرائهم ما يأخذ به ويدع رأيه لرأيهم، ومنه ما يقيم على رأيه دون رأيهم، ويقول: هو أصوب. وإذا فعل الشئ يسأل الناس عنه، هلى هو صواب أم خطأ، ويسمع منهم ويجادلهم، ويعتذر إليهم، ويبين وجه الصواب. كما قال لبعض أصحابه لما حكم بالشام ورجع إلى العراق فقال لخاصته: ما يقول أهل الرأى؟:

فقيل له: أما أهل الرأى فيقولون: إن علياً كان له بناء فهدمه، وكان له جمع ففرقه، فحى مى يبنى مثل ما هدم، ويجمع مثل ما فرّق، فلو أنه إذ عصاه من عصاه مضى بمن أطاعه فإما فتح وإما قتل، فكان أعذر مما صنع؛ فقال رضي الله عنه: أنا هدمت أم هم؟، أنا فرقت أم هم؟ وأما قولهم: لو مضى بمن أطاعه من أصحابه إذ عصاه من عصاه ففتح أو قتل فكان أعذر، فوالله ما

غبى علىّ هذا الرأى ولا ذهب عنى، ولكن كان هذان، يعنى الحسن والحسين، متى حملت أتبعانى، وهذان يعنى محمد بن الحنفية وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب يقدمانى فكرهت أن يهلك هذان فلا يبقى لرسول الله ذرية، وكرهت أن يهلك هذان فإنهما شابان ومن أجلى أقدما، وسترون إذا عدت إن شاء الله إلى الشام، لا أدع هؤلاء فى عسكرى.

فانظر كيف يباحث أهل الرأى ويقبل الصواب ويحمده ويبين عذره لما هو.

ولما قاله قائل بالكوفة: ذهبت إلى الشام ورجعت فلم تصنع شيئاً. فيكون من جوابه، أن على الإنسان أن يجتهد رأيه، ولا لائمة عليه بعد ذلك.

ولا يحتج فى شئ من ذلك بنص، ولا حكمة، ولا عصمة، ولا آية ولا معجزة، ولا يقول: هكذا وصانى رسول الله ﷺ وقال لى: ينبغى أن تفعل كذا، ويقول لأهل الكوفة: اخترتكم على أهل البصرة وظننت أن عندكم ما أحب من الطاعة والنصرة، فقلت لابن عباس هؤلاء أشد شوكة، وهم أزالوا كسرى عن ملكه، فلم تكونوا كما ظننت.

وخطبهم مرة فقال:

ليتنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندماً، وملأتم قلبى غيظاً، وجرعتمونى بكأس التهمام أنفاساً.

ويقول فى بعض أقواله: ندمت على كذا ، ويقول:

إنى عثرت عثرة لا أجتبر ... سوف أكيس بعدها أو أستمر

وأجمع الرأى الشتيت المنتشر

وقد قال فى الجد بأقوال مختلفة، ورجع من قول إلى قول، وكذا فى الحلية والبرية، وفى أمهات الأولاد، وفى غير ذلك، وهو فى الاجتهاد وفى

الرجوع من قول إلى قول أشهر من أبى بكر، وعمر، وعثمان، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وكان يستقضى ويستعمل من يخالفه فى الاجتهاد والرأى، ويحكم بغير قوله، مثل ابن العباس، وشريح بن الحارث، وأبى مسعود البدرى، وأبى موسى الأشعرى، وغيرهم. وكان الناس يفى سلطانه وفى بلدان ملكه وحيث ينفذ أمره، والبلدان التى هو فيها وفيها عماله، يفتى الناس فيها بالرأى والاجتهاد، بما يخالف اجتهاده ورأيه، مثل من كان بالكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود، ومن المدينة من زيد بن ثابت وغيره، ومن بالبصرة، ويعلم بذلك ويجاريهم فيه، فلا ينكره ولا يرده، بل يسوغهم، ويصوب الأحياء ويترحم على الموتى، حين حكم أهل الكوفة فى إبل ابنى عم، أحدهما أخ لأم، فجعلوا أهل الكوفة المال كله للأخ للأم، فقال لهم: لم فعلتم ذلك؟ قالوا: هكذا فعل ابن مسعود، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، وكان مذهبه غير هذا، إلى ما لا يحصى كثرة.

ولقد قالت العلماء: العلم بأن النبى عليه السلام ما نص على على ولا استخلفه، ولا كان على يدعى النص والوصية والعصمة، أقوى من العلم بأنه ما نص على عمار، ولا على بلال، ولا على ألى ذر، لأن علياً قد كان فى زمن أبى بكر وعمر وعثمان، وبقى بعدهم خليفة وسلطاناً مائة ألف سيف تطيعه وتنقاد لأمره، وقد خوصم وخولف ونوزع، وجازل وخاصم أصحابه وأهله عنه، فما احتج قط بنص ولا وصية ولا عصمة مع حاجته إلى ذلك، ولا احتج له أحد من أولئك.

ومن عجيب أمر هؤلاء الإمامية أنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ قد كان عرفه عدوه ووليه وما يجرى عليه بعده، وأنه خرج إلى صفين وهو يعلم أنه لا يظفر بمعاوية، وأن معاوية سيرفع المصاحف، وينقض تدبيره، ويفسد عليه أصحابه، ويدره كئيباً حزيناً. وأن عمرو بن العاص سيغلب صاحبه أبا موسى إذا أنفذه للحكومة، ويجعل ذلك حجة لأهل الشام، وأن عبد الرحمن بن ملجم

سيقتله فى تلك الساعة، وأنه خرج إليه وهو يعلم أنه ينتظره ليقتله، وأن الحسين عليه السلام، وجه بابن عمه مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة ليأخذ البيعة عليهم وهو يعلم أنه لا يتم له أمر، وأن عدوه سيقتله، وأن أهل الكوفة لما كاتبوه بالمصير إليهم وضمنوا له النصرة فقبل كتبهم وقولهم وسار إليهم وهو يعلم أنهم لا يفون له. وأنه إذا صار إليهم ومن معه سيقتلونهم ويقتلون إخوته، ويحملون رأسه وذريته إلى الشام، وأن أمير المؤمنين استعمل مصقلة بن هبيرة الشيبانى وائتمنه على كورة أرشدير حرة وعلى مال بنى ناحية، وهو يعلم أنه سيغدر به ويحونه ويصير إلى معاوية، وأنه استعمل زياد بن سمية الثقفى على كورة اصطخر، وهو يعرف عداوته له، وما يؤول إليه أمره من مصيره بعده إلى معاوية، وقتله لشيعته، وإظهاره للعنه، وقتل ابنه عبيد الله للحسين عليه السلام، وكذا خالد بن المعمر السدوسى وسائر من خانه من عماله، الذين استعملهم واختارهم فخانوه وغدروا به، وأنه استعمل قيس ابن اسعد على مصر، ثم أظهر تهمته وتقصيره والخوف من خيانته فعزله، مع شهامته وكفايته وأمانته وثقل وطأته على عدوه معاوية، واستعمل على مصر بدلاً منه محمد بن أبى بكر الصديق، وهو يعلم أنه يقصر عن منزلة قيس، وأن معاوية سيقتله ويقتل أصحابه، وأنه بعد قتل محمد أنفذ الأشتر والياً على مصر، وهو يعلم أن صاحب القلزم سيقتله، وأنه والأئمة من ولده كانوا يعلمون ضمائر الخصوم الذين يرتفعون إليهم، ومن المحق منهم ومن المبطل، ويعرفون ضمائر الشهود والذين يشهدون عندهم، ومن هو الكاذب من الصادق.

والعلم رحمك الله إنما يحتاج إلى لاجتلاب المنافع ودفع المضار، فهذا موضع الانتفاع بتقدمة المعرفة، ولولا ذلك لكان طلب العلم جهلاً، والرغبة فى المعرفة عداء، والله عز وجل يقول لنبيه: قل يا محمد: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1] ويقول له فى قوم كانوا يظهرون له

---

(١) سورة الأعراف آية ٨٨.

الحيل فيظن ذلك بهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[1] وقال له فى آخرين ظن بهم هذا الظنّ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[2] وقد قال ﷺ: «وإنما أحكم بالظاهر والله هو المتولى للسرائر، فمن قضيت له بشئ بغير حق فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» وهذا باب لا يتكلف نقضه على الخصوم، وإنما ذكرناه على طريق التعجب. فإن من عرف مير المؤمنين وولده ضى الله عنهم، يعلم أنهم كانوا لا يعلمون ما يدعيه هؤلاء عليهم، وأنهم كانوا يعملون فيها بظنونهم وما يغلب على رأيهم، يزعمون أنهم كانوا يقصدون ما يفسد أمرهم ويقتل نفوسهم وأحبابهم، ويشمت عدوهم، ويميت سلطانيهم، ويكسر عساكرهم، ويمكن لعدوهم على علم ويقين؛ فإذا الجهال من أعدائهم الذين يعملون بالجهل والحبط، ويختارون لأنفسهم بجهلهم ونقضهم أسلم على عمالهم وأصحابهم من معاوية وبنى أمية من هؤلاء العالمين المعصومين، فلو أراد مريد أن يبالغ فى سب هؤلاء السادة صلوات الله عليهم لما بلغ منهم ما بلغ هؤلاء الذين زعموا أنهم لهم شيعة وأولياء، ولكن العلماء قالوا: إن إوائلهم أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ولدينه ولأهل بيته، فلم يمكنهم المكاشفة بذلك، فادعوا أنهم شيعة، وتستروا بذلك. وسبوهم هذا السب، وطعنوا عليهم هذا الطعن، الذى لم يبلغه العدو المكاشف بعداوتهم من الحرورية وبنى أمية.

وكذا يقول العلوية من بنى الحسن والزيدية من بنى الحسين، والقاسمية، والناصرية: الرافضة علينا وأنكأ فينا من الحرورية وبنى أمية الذين ولغوا فى دمائنا.

ومما يزيدك فى العجب قولهم: إن النبى ﷺ، وأمير المؤمنين، والذين يدعون لهم الإمامة من ولده يعرفون اللغة الفارسية والرومية والهندية

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٤.

(٢) سورة المنافقون آية ٤.

والقبطية والتركية والديلمية وسائر اللغات ويتكلمون بها، ولا يجوز أن يكون فى أهل هذه اللغات أحد أعلم بها منهم، قالوا: ويجب أن يعلموا ذلك بدليل العقل، ولو لم يعلموا ذلك نقصاً فيهم وهم حجج الله على خلقه، ولإمام لا يترجم له ولا يحتاج إلى ترجمان إذا حضره الخصوم، ولابد من أن يكون عالماً بجميع اللغات؛ قالوا ويجب أن يعلم جميع الأقلام، ويكتب بها، ويقرأ ما كتب بها، ويخط بالأقلام كلها، ولا يجوز أن يكون أحد أكتب منهم فقد سبوهم وانتقصوهم، وأنهم قد كتبوا الكتب كلها، وكتبوا بالأقلام كلها بالخطوط التى لا يكون أحسن منها، ونطقوا باللغات كلها، وأن النبى ﷺ قد كان قرء صحف إبراهيم، وما نزل على آدم، ونوح، وموسى، وداود، وعيسى، وجميع الأنبياء، بتلك الألسن، وكتبها بتلك الأقلام.

وأنت تجده ﷺ يحتج فى نبوته على عدوه حين تلا عليهم ما فى كتبهم بأنه من قبل الله وعلمه، وأنه ما تلا قبله كتاباً ولا خطه بيمينه إذاً لارتاب المبطلون. ويدل بذلك، ويستطيل على الخصوم ويقول: إن الله قد نعته ووصفه للأنبياء قبله بأنه النبى الأمى، وهؤلاء يقولون لم يكن الأمر كذلك، وزعموا أنهم يمدحونه بهذا القول وفيه تكذيبه، فتأمل ما يجلب هؤلاء على رسول الله ﷺ وعلى دينه من المكاره وهم يتجاوزون هذا إلى أن هؤلاء القوم يعلمون ما تريده السباع بعوائها، وكذا جميع الير والبهائم، وهذا لهم مسطور، وأنت فقد علمت بدليل عقلك أن رسول الله ﷺ ما قرأ كتاباً قط ولا خطه بيمينه كما تقدم ذلك، وبأى شئ تعلم أن أبا بكر وعمر وعثمان والعباس وعبد الرحمن وأمثالهم ما كانوا[1] يكتبون بهذه الأقلام ولا يحسنون هذه اللغات إلا والعلم بأن رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والحسن والحسين رضى الله عنهم ما كانوا يحسنون ذلك أقوى وأظهر، وأن هؤلاء ما كانوا يكتبون إلا بالعربية، وأن رسول الله ﷺ ما كان يكتب لا بالعربية ولا بغيرها من الأقلام، وهم يدعون على

---

(١) في المخطوط: «كان» ولعل الصواب ما أثبتناه.

رسول الله ﷺ وعلى هؤلاء الذين يدعون إمامتهم أنهم كانوا يحسنون الصنائع كلها، وأنهم أعلم الناس بها، من النجارة والخياطة والصباغة، وكل صناعة فى الدنيا صغرت أو كبرت، ارتفعت أو اتضعت، وأن رسول الله ﷺ كان أعلم بالشعر من كل شاعر، وقد علم أهل المعرفة بعقولهم أنه ما كان يحسن شيئاً من ذلك البتة، ولا يروى لغيره شيئاً منه البتة، وأنه كان لا يقيم بيتاً واحداً يروه لغيره كما يرويه العرب والعجم، والفصيح والأعجم؛ ولا يستقيم له، ولا جيرى على لسانه، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[1] فمن هذا الجنس مدائحهم لرسول الله ﷺ وأهل بيته، وهو الغاية فى تكذيبه والطعت فى نبوته.

وانظر إلى قولهم فيهم أنهم كانوا يعلمون المكاره التى كانت تنزل بهم، وتفسد أمرهم، وتشمت عدوهم، وكانوا يسعون إليها على عمد وعلم، والله قد أقامهم حتى يحفظوا عباده ويمنعوهم من الفساد، ولا يمكنوا من غفر حمار يهودى، وهم يمكنون من أنفسهم وعيالهم على علم، والله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2] ويقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[3] ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[4] ويقول فى قصة سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[5]، يقول عز وجل: إن الجن وعفاريتها كانت تدعى علم الغيب، وفى الإنس من يدعى ذلك لها، وكان سليمان عليه السلام واقفاً بإزائها، ويستعملها فى تلك الأعمال الشاقة المؤذية المهينة، وهى تعمل خوفاً منه، وهو متكئ على عصا كانت فى يده، فتوفاه الله

---

(١) سورة يس آية ٦٩.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٥.

(٣) سورة النساء آية ٢٩.

(٤) سورة النساء آية ٧١.

(٥) سورة سبأ آية ١٤.

عز وجل على تلك الحال، والشياطين لا تعلم، وهى تعمل وتظن أنه يراها ويشاهدها، وكانت إن قصرت عذّبها، فهى تخاف نكاله بها، فبقيت على هذا حيناً من الدهر تظنه حياً وهو قد مات، فلما أكلت دابة الأرض عصاه ﷺ تبينت الجن أنه قد مات منذ حين طويل وهو حذاءها ولا تعلم، ولو علمت لا نتفعت بهذا العلم، ولتخلصت من العذاب المهين، فإنما يراد العلم بالعواقب لينتفع به، وهؤلاء يدعون على القوم أنهم كانوا يعلمون العواقب ويلقون أنفسهم فى المهالك، وقد بين عز وجل أن يوسف ﷺ لما أعلمه بالعواقب فى تلك السنين انتفع بذلك العلم واستعمله، فدفع به المضار، واجتلب به المنافع، وصار به إلى ملك الأرض، وإلى أن خضعت له الملوك وألقت تقاليدها إلى فقرت عينه، وعين كل ولىّ له وسجنت عيون أعدائه وماتوا كمداً فقال لهم: ستتوالى عليكم سبع سنين خصبة، فلا تغتروا واخزنوا الطعام، فسيأتى بعدهن سبع شداد قحطة تأكلون فيها جميع ما خزنتم فى السبع الخصبة وليكن ما تخزنونه فى سنبله وتبنه لئلا يعفن فيه السوس، ولا تخرجوا من السنبل إلا ما تتدبرونه، حين قال لما سأله رسول الملك عن رؤيا الملك.

والله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] بيّن عز وجل، أن العاقل إذا علم العواقب بدأ بنفسه فتحرز من المضار سلم من المكاره، ثم بعد ذلك ينتفع غيره إن شاء، ففى وقوعهم فى المكاره من أدل الدليل على أنهم لا يعلمون العواقب، فلم قالوا لغيرهم: لو أطاعونا ما قتلوا، ما فى هذا فضيحتهم. وهذا مثل قصة سليمان مع الجن.

فتأمل ما فى هذا الكلام من الحكم البالغة، فإنه وإن كان كلاماً فى توبيخ الشيع فيما أضافوه إلى النبى ﷺ وإلى أهل البيت، ففيه بيان شاف فى تكذيب المنجمين والرد عليهم، فقد قال لهم أبو الهذيل رحمه الله حين

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٨.

استدعاه المأمون وسأله الكلام عليهم فقال لهم: أخبرونى أيما أيسر عندكم، العلم بما سيكون أو العلم بما قد كان، فقال لهم: فأخبرونا عما قد كان، إن شئتم بالبصرة، وإن شئتم بالكوفة، وإن شئتم ببغداد، وإن شئتم فى هذا القصر، بأن تقولوا فى خزانة الكسوة كذا وكذا صندوقاً أو رزمة أو عدلاً، وفى الصندوق الفلانى كذا وكذا قميضاً وكذا وكذا قباء، وكذا وكذا عمامة، وفصلوا ما فى كل واحد منها، وهو شئ قد كان ووجد، وعرفه الخزان والفراشون، ولكم الكلام. فسكتوا فما أحاروا جواباً، وهذا شاف كاف بل زائد على الكفاية فما تحتاج معه إلى غيره فى بيان فضيحتهم، فاعرف ذلك.

وكذا قال لهم أبو الفضل جعفقر بن حرب رحمه الله: إذا قلتم إن النجوم تدل على ما كان ويكون، وما هو موجود ومعدوم، فما يمنعكم أن تستدلوا على كنوز كسرى وقيصر فتستغنوا بها عن خدمة الملوك، وطلب ما فى أيدى الناس، والتذلل لهم لأجل ما عندهم، وكذلك معادن الذهب والفضة والغوص على الدر، فيجعلون للملوك عليه الجعل الثمين، ويخبروهم بمبلغ ما فيها. وقد سألهم أبو على الجبائى عن مثل هذا، وسألهم أصحابه، وهذا ما لا حيلة لهم فيه، وإنما أنطق هؤلاء القرآن وما نبه الله عليه عباده مما تقدم ذكره، فعليك بمداومة درسه والفكر فيا تدرسه والتدبر له، ولو كان للمنجمين فطنة الشيع وما عندهم لما انقطعوا فى يد أحد، فإنهم كانوا يقولون: قد علمنا ما كان وما يكون ولكن لا نقول، ونخطئ على عمد، ونفضح أنفسنا على عمد، ونشمت أعداءنا على عمد، ولو شئنا لاستغنينا وأغنينا من شئنا ولكن لا نفعل على ضرب من التدبير، وعلى قول الشيع لا يفتضح كذاب، ولا تقوم حجة على محتال وكذاب ومتكهن ومتنبئ، فإن كل واحد من هؤلاء يقدر أن يقول أنا نبى، ولو شئت لأحييت الموتى وأخبرت بالغيوب، ولكن لا أفعل لضرب من التدبير، ولمحنة امتحننى الله بها كما تقول ذلك الشيع فى أئمتها، فلا يكون للشيعة معهم كلام، ولا من قولهم انفصال.

فأما أنت رحمك الله، فلو قال لك قائل من المنجمين أو المحتالين

المتكسبين هذا لكان من جوابك أن تقول: أنا أعلم أنك تكذب لأنك مضطر ملجأ إلى أن تغنى نفسك وعيالك، وإلى أن لا تفضح نفسك وتشمت عدوك، فأنت لا تعلم شيئاً مما ادعيت ولا تقدر عليه، ولا تجد سبيلاً إليه.

والعجب أن الشيع تزعم أن الله أطلع الأئمة على هذه الغيوب لأنهم حجج الله على خلقه، ولتقوم حجتهم عليهم بهذه العلوم، ثم لا يظهر من هؤلاء القوم شئ مما يدعون مع حاجتهم عليهم إلى ذلك، بل أفعالهم تشهد أنهم لا يعلمون ذلك، وأنهم كغيرهم من طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن، فسبيل أمير المؤمنين سبيلهم، بل الأمر فى بابه عليه السلام أوضح ف كذب هؤلاء عليه فى ادعائهم له النص والعصمة والمعجزات، وقد خالفه من ذكرنا ونازعهم وخاصمهم فما احتج بشئ من ذلك مع حاجته إليه كما تقدم ذكر ذلك فى غير موضع من هذا الكتاب.

والعجب أن أمير المؤمنين رضي الله عنه يسأل عما كان من طلحة والزبير، فيقال له: قد سارا مع عائشة إلى البصرة، فيعجب ويقول: ما ظننت أنهما يفعلان هذا، ويسأل عن معاوية وأهل الشام ويتعرف بأخبارهم من واحد بعد واحد، ويتعجب من إخراج من بالبصرة عامله عثمان بن حنيف منها بعد أن بايعوه، وأنه ما ظن أنهم يفعلون ذلك، ولما سار إلى البصرة وصار بالربذة قال: من له هداية بذى قار يهدينا ويعرفنا الطريق، فجاء رجل فقال له: أنا من أهدى الناس بذى قار، فسار بين يديه حتى جاء إلى ذى قار.

ولما اشتبكت الحرب بالبصرة قال للحسن ابنه عليهما السلام: يا حسن، أما ترى، ودّ أبوك أنه قد مات قبل هذا اليوم بعشرين سنة، قال له الحسن: قد أمرتك وخوفتك فعصيتنى، فقال: والله يا بنى ما ظننت أن الأمر يصير إلى هذا.

وكان ابن عباس يقول: كان على رضي الله عنه لسابقته وقرابته يرى أنه لا يخالف ولا يريد أمراً إلا بلغه، فلم يكن كما ظن.

ورأى عليه السلام على بنت له لؤلؤة من المال فعرفها، فانزعج، فقال: من أين لها هذه لله، علىّ أن أقطع يدها، فقال له أبو رافع خازنه على بيت المال لما رأى جدّه فى ذلك: أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها، فهدأ وسكت.

ودخل على الحسن عليه السلام رجل فقال له: من أنت ومن تكون؟ فقال له: أنا رسول معاوية إليك، فقال له: أو هكذا يدخل الناس على الناس، اخرج فاستأذن وسلم، ففعل ذلك ودخل بعد أن أذن له، فقال له: فى أى شئ أرسلك معاوية، فقال له: يقول لك أنت من أهل العراق على غرر، قد راسلنى[1] رؤساؤهم بأنهم يسلمونك إلىّ، وهذه كتبهم، فألقاها بين يديه ليقرأها، فلما وقف على ذلك قال: حتى أعرف ما عند الناس، فخرج وعلا المنبر، وجمع الناس، ثم قال: يا أهل العراق، الله الله فى جيرانكم وضيفانكم من أهل نبيكم، فبكى الناس، ثم خطبهم فقال: إنه والله ما ثانا عن قتال معاوية شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وقد كنتم فى مبدئكم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وإنا كما كنا لكم ولستم كما كنتم لنا، وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، والباكى خاذل، والطالب ثائر، وإن معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت ردنا عليه وحاكمناه إلى الله، وإن أردتم البقية أخذنا لكم بالوثيقة فنادوه البقية البقية يا أمير المؤمنين، فجلس، وتعجب أن معاوية قد صدق عليهم، وقال: يا أهل العراق سخا بنفسى عنكم قتل أبى وجراحتكم لى وانتهابكم متاعى.

ولما مات معاوية عزم الحسين عليه السلام على المسير إلى الكوفة، أتاه عبد الله بن عمر بن الخطاب فسأله عن رأيه، فأخبره أن أهل الكوفة قد

---

(١) في المخطوط: أرسلني.

راسلوه وبايعوه، فقال له عبد الله بن عمر: لا تقبل منهم ولا تسر إليهم، ولا تأمن بنى أمية، فإنهم طغاة ضلال طلاب دنيا، لا يبالون من قتلوا، فلا تغتر بأهل الكوفة فإنهم قتلوا أباك وخذلوا أخاك، وهم يسلمونك فى طاعة نبى أمية، فقال الحسين: هذه كتبهم، وقد بايعونى، وأخذ عليهم مسلم بن عقيل البيعة لى، وكاتبونى بالقدوم عليهم، وأنهم ينصرونى، وابن عمر يقول له لا تثق بهم فإنهم يسلمونك، والحسين عليه السلام يكذب عنهم ويذكر ثقته بهم، وأنه قد راجعهم ووبخهم بما كان منهم، وأنه وثق منهم أنهم لا يسلمونه ولا يصنعون به ما صنعوا بأبيه وأخيه، فلما رآه ابن عمر واثقاً بهم لا يقبل منه فيهم. قال له: استودعك الله من قتيل.

وأتاه عبد الله بن عباس فنهاه عن المسير إليهم، وقال له نحو قول ابن عمر، فأخرج كتبهم وأقرأه إياها، يقولون: قد اخضّر الجناب فأقدم، فإنما تقدم على جند مجند، فقال له ابن عباس: لا تقبل منهم، فإنما يدعونك إلى القتال وهم يسلمونك، والحسين يقول: ما كانوا ليفعلوا هذا وقد بايعونى وعاهدونى وهذه كتبهم، وأشار إلى خرج مملوء بكتبهم، فقال له لا تفعل فإنهم لا يفون، فلما رآه ابن عباس لا يقبل منه قال له: فلا تسر بعيالك معك فتقتل وهم يرونك.

فسار بعياله واثقاً بهم ليستوطن الكوفة، مسروراً مستبشراً بأنه لا يلقى قتالاً، ولا من أهل الكوفة خلافاً ولا غدراً، وأنه يدخلها مع عياله بغير دافع ولا مانع.

ولم يكن عبيد الله بن زياد بالكوفة بل كان بالبصرة، فسار إلى الكوفة فأخذ مسلم بن عقيل فقتله، وقتل هانئ بن عروة المرادى، والحسين قاصد إلى الكوفة لا يعلم بشئ من ذلك، وأرسل آخاه من الرضاعة إلى الكوفة ليعرف مسلم بن عقيل وأهل الكوفة بأنه عليه السلام قد سار إليهم وقرب منهم، فأخذه عبيد الله بن زياد فقتله، والحسين عليه السلام لا يعلم بشئ من ذلك.

فلما قرب من الكوفة لقيه من قد جاء من الكوفة يريد البادية، فسأله

عن الخبر فأخبره بقتل مسلم وهانئ والرضيع، وأن أهل الكوفة ما دافعوا عبيد الله بن زياد عنهم، وأنه قد تمكن. فبقى عليه السلام كئيباً حزيناً، وصار فى نسائه مأتم بمسلم ابن عمه وكان زوج أخته، فقال له من لقيه: ارجع، فقبل منهم وهم بالرجوع. فقال له بنو عقيل إخوة مسلم: يقتل أخونا ونرجع وما أخذنا بثأرنا، سر بنا حتى نلقى أهل الكوفة. فسار معهم وظن أن أهل الكوفة إذا رأوه نصروه وصاروا معه على ابن زياد، وهو يسير وكل من يلقاه يقول له: ارجع فإن أهل الكوفة قد غدروا بك، وهو يظن أنهم إذا رأوه صاروا معه.

فلما قرب من الكوفة وجه عبيد الله بن زياد بأهل الكوفة فأحاطوا بالحسين ومنعوه من الرجوع، فقال لهم: ويلكم بكتبكم جئت، ومنكم قبلت، وناداهم يا فلان بن فلان، ويافلان بن فلان، هذا كتابك، قد كنا ساكتين وعدونا عنا ممسك، فسللتم علينا سيفاً كان مغموداً عنا، وفعلتم وفعلتم، فما زالوا يحاربونه، وعياله يضجون ويبكون، ومن معه من إخوته وولده وبنى عمه يقتلون، وهو يبكى ويذكر قول ابن عمر، وكلما ضج نساؤه يقول: لا يبعد الله ابن عباس، وقد أيقن بالقتل، وهو يودع عياله ويوصيهم بأن لا يشقوا عليه جيباً؛ ولا يظهروا[1] عويلاً، وأخته زينب تقول له: يا أبا عبد الله، يا أبا عبد الله، أنا الفداء لك، أتغتصب نفسك على القتل، ويقول كيف أصنع يا أخيّة، أصبرى واحتسبى، قتل أبى وهو خير منى، ومضى أخى وهو خير منى، ويحتسب على أهل الكوفة وأنهم غروه وكذا أبوه، ويندم على قبوله منهم وعلى قدومه، وأنه أعلم أنهم لا يفون، وأنه ليته لم يقدم، وأنه حين قدم لم يقدم بعياله، وكم مثل هذا من أفعالهم وأقوالهم لو أردت أن تحصيه لا حتجت فيه إلى الطوامير الطوال، ثم كنت لا تأتى على جميعه لكثرته.

والعلم بأن هؤلاء كانوا يحتاجون إلى المعرفة بما فى نفس عدوهم ووليهم مثل غيرهم من الناس أقوى من العلم بأنهم يحتاجون إلى الطعام والشراب.

---

(١) في المخطوط: يظهرون.

ولا يزال هؤلاء الشيع يقولون: الدلالة على أن أمير المؤمنين خير من أبى بكر وعمر وأن المعجزات كانت تظهر عليه، أن قوماً فى زمانه قد ادّعوا فيه أن إله العالمين ورب السموات والأرضين، وأن مثل ذلك ما قيل فى أبى بكر وعمر.

قيل لهم: فقد ادّعى قوم من الهند والعرب وغيرهم فى الأصنام والبددة أنها آلهة وأرباب وعبدوها، وادّعى قوم فى الكواكب مثل ذلك، فينبغى على قياسكم أن يكون قد ظهر منها آيات ومعجزات، وأن تكون خيراً من الأنبياء وقد ادعى قوم لخلق بما تقدم ذكره.

ومن عجيب الأمور، أن أفعال هؤلاء وأقوالهم، تشهد بأنهم عليهم السلام ما ادعوا ما تدعيه الشيع لهم من النصوص والوصايا والمعجزات، وقد تيقن ذلك كل متوسم ومتأمل، فقالوا: ننصرف عن هذا كله لقول جاهل لا يعرف الربوبية من الإنسانية، فإن الذى إلقى هذا فى عسكر أمير المؤمنين إلى قوم جهال لايعرفون عبد الله بن سبأ، وهو المعروف بابن السوداء، وكان يهودياً من ناحية اليمن، وكان خبيثاً منكراً، فأظهر الإسلام فى زمن عثمان، وسار حتى أتى الحجاز، وأظهر التقشف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاختلاط بالمسلمين، وكان يطلب الرئاسة فلم يقم له سوق، ولم يؤبه له، فرحل إلى الكوفة فأقام مدة يطلب ذلك، فلم يقم له سوق فرحل إلى الشام وأقام يطلب ذلك واختلط بالصحابة، وتقرب ألى أبى الدرداء، وعبادة بن الصامت، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فغطن أولئك له فنهوه، وأوقع بين أبى الدرداء وبين قوم بالشام شراً، وتبين أمره بالشام فرحل إلى مصر، وكان على هذا، واغتر به قوم فأوقع خلافاً بين ا لناس، ووافى عمار ابن ياسر رسولاً لعثمان إلى مصر، فحمل أقواماً على أن بلغوا عماراً رحمه الله عليه من بمصر عن الولاة مكروهاً، فثار من ذلك فتنة.

وسار ابن السوداء هذا إلى المدينة مع المصريين الذين تظلموا من عمال عثمان، وأقام بالمدينة معهم، ومازال يغرى بعثمان إلى أن اغتاله قوم من المصريين، فتسلقوا عليه فى السحر فقتلوه، وقاتله لا يعرف إلى هذه الغاية.

ثم وثب المصريون، فأثاروا فتنة عظيمة بعد قتل عثمان، ولما نفر طلحة والزبير وعائشة من أفعالهم وصاروا إلى البصرة، راسلهم أمير المؤمنين بالقعقاع بن عمرو، وبابن عباس. وبمحمد بن حاطب، وبكليب الجرمى، واصطلحوا على أن يصير أمير المؤمنين إلى البصرة ويجتمعون وينظرون، فدس ابن السوداء أصحابه وقال لهم: أوقعوا الفتنة حتى تنشب الحرب، فإنهم إن اصطلحوا فما يصطلحون إلا عليكم، فكانت الفتنة، وكل هذا فقد ذكره غير واحد من العلماء وشرحوه طويلاً مفصلاً وحاله هذه معروفة.

وكان بالكوفة يظهر تعظيم أمير المؤمنين بما لا يرضاه أمير المؤمنين ويستغوى بذلك من ليست له صحبة ولا فقه فى الدين، وكالبوادى وأهل السواد، ويتحدث بينهم، وربما استقصر عندهم فعل أبى بكر وعمر وعثمان، ويقدم أمير المؤمنين عليهم فى الفضل، لأنه كان يدعى ما ادعاه أبو الخطاب وهشام بن الحكم، وكان يدّعى عند أمثال هؤلاء أن أمير المؤمنين يستخصه ويخرج إليه بأسرار لا يخرج بها إلى غيره. وأمير المؤمنين لا يعلم بذلك.

ولقد قال قائل لأمير المؤمنين عجبت لقوم كنت فيهم كيف ولّوا عليهم وعليك غيرك؟ فقال له أمير المؤمنين: أرأيت أبا بكر الصديق؟ قال: لا، قال : إما إنك لو قلت لى أنك رأيته لفعلت بك وفعلت.

وكان ابن سبأ هذا يقول لأصحابه: إن أمير المؤمنين قال لى: إنه يدخل دمشق ويهدم مسجدها حجراً حجراً، ويظهر على أهل الأرض ويكشف له أسراراً ويعرفهم أنه ربهم، وليس لهذا كأبى بكر وعمر وعثمان.

ولقد أتى أمير المؤمنين رضي الله عنه عن سويد بن عقلة، وكان من خاصته وكبار أصحابه، فقال له: يا أمرى المؤمنين، مررت بنفير من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر بغير الذى هما من الأمة له أهل، ويرون أنك تضمر لهما على مثل ما أعلنوا، فقال: أعوذ بالله أعوذ بالله، مرتين، أن أضمر لهما إلا الذى أتمنى المضى عليه، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله ﷺ وصاحباه ووزيراه، رحمة الله عليهما. ثم نهض دامع العينين يبكى، قابضاً على

يدى سويد، حتى دخل المسجد، فصعد المنبر فجلس عليه متمكناً، قابضاً على لحيته، وهى بيضاء، حتى اجتمع الناس، ثم قام فتشهد بخطبة موجزة بليغة، ثم قال: ما بال أقوام يذكرون سيدى قريش وأبوى المسلمين بما أنا عنه متنزه، ومما قالوا برئ، وعلى ما قالوا معاقب، أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، لا يحبهما إلا مؤمن تقى، ولا يبغضهما إلا فاجر ردئ صحبا رسول الله ﷺ على الصدق والوفاء يأمران وينهيان، ويقضيان ويعاقبان، فما يجاوزان فيما يصنعان رأى رسول الله ﷺ، وكان لا يرى مثل رأيهما رأياً، ولا يحب كحبهما أحد، مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راض، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون، أمر رسول الله ﷺ أبا بكر على صلاة المؤمنين، فصلى بهم تلك الأيام فى حياة رسول الله ﷺ، فلما قبض الله نبيه ﷺ واختار له ما عنده، مضى مفقوداً ﷺ، ولاه المؤمنون ذلك، وفوضوا إليه الزكاة بأنهما مقرونتان، ثم أعطوه البيعة طائعين غير مكرهين. أنا أول من سن له ذلك من بنى عبد المطلب وهو لذلك كاره، يودّ لو أن بعضنا كفاه، فكان والله خير من بقى رأفة، وأرحمه رحمة، وأيسه ورعاً، وأقدمه سلماً وإسلاماً، شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة. وبإبراهيم عفواً ووقاراً، فسار فينا سيرة رسول الله ﷺ، حتى قبضه الله على ذلك. ثم ولى الأمر بعده عمر، واستأمر فى ذلك المسلمين، فمنهم من رضى ومنهم من كره، فلم يفارق الدنيا حتى رضى به من كان كارهه، وأقام الأمر على منهاج النبى ﷺ، يتبع أثرهما كاتباع الفصيل أثر أمه، وكان والله رفيقاً رحيما لضعفاء المسلمين، وبالمؤمنين عوناً وناصراً على الظالمين، لا تأخذه فى الله لومة لائم، ضرب الله بالحق على لسانه، وجعل الصدق من شأنه، حتى إن كنا لنظن أن ملكاً ينطق على لسانه، أعز الله بإسلامه الإسلام وجعل خجرته للدين قواماً، ألقى لله له فى قلوب المؤمنين ال محبة وفى قوم المشركين المنافقين الرهبة، شبهه رسول اللهﷺ بجبريل فظاً غليظاً على الأعداء، وبنوح حنقاً مغتاظاً على الكفار، والضراء على طاعة الله آثر عنده من السراء على معصية الله، فمن لكم بمثلهما رحمة الله عليهما ورزقنا المضىّ

على سبيلهما، فإنه لا يبلغ مبلغهما إلابالحب لهما، واتباع آثارهما، فمن أحبنى فليحبهما، ومن لم يحبهما فقد أبغضنى وأنا منه برئ، ولو كنت تقدمت إليكم فى أمرهما لعاقبت على هذا أشد العقوبة، فمن أوتيت به بعد هذا اليوم فإنه عليه ما على المفترى، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو، أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم.

فإن قالوا: لا نصدق بهذا، قلنا: العجب أنكم تصدقون قوله: « من كنت مولاه فعلى مولاه» ولا تصدقون بهذا ومجيئه أقوى من مجئ ذاك، والحال التى وصفها أمير المؤمنين فى هذا الحديث بيّنة معلومة قد شهد بها العقل، وقد تقدم بيان ذلك، وإنما ذكرنا هذا عند ذكركم للتفضيل وتعقلكم بصحته مما ادعته السبية أصحاب علد الله بن سبأ، وهو ابن السوداء.

ولقد قال أبو القاسم البلخى فى كتابه الذى نقض به اعتراض ابن الراوندى على كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى أن القرآن سليم من الزيادة والنقصان: إن قول أمير المؤمنين: ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر[1] وعمر قد جاء مجيئاً لا ينكره من له فى العلم نصيب، وذكر جماعة ممن رووا فضلهم ونبلهم وكثرتهم وجلالتهم ثم قال: ولكن عندنا ما أراد نفسه.

ثم ذكر أبو القاسم رحمة الله عليه أن شريك بن عبد الله كان من كبار الشيعة، وكان يقول: خير هذه الأمة أبو بكر وعمر وهما خير من على، ولو قلت غير هذا ما كنت من شيعة على، لأنه قد قام على هذه الأعواد فقال: ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيهاأبو بكر وعمر، فنكذبه، والله ما كان كذاباً.

قال أبو القاسم: الخبر صحيح، ولكنه عندنا مخصوص، ولم نقصد لذكر ما قاله أمير المؤمنين فى فضلهما، فإن ذلك أوضح من الشمس وهو كثير، وله كتب كثيرة مفردة طويلة، وإنما ذكرنا هذا عند ذكر عبد الله بن سبء وما كان منه، وبما أفسد به على أمير المؤمنين، وربما ألقى عبد الله بن

---

(١) في المخطوط: أبي بكر.

سبأ هذا ما ألقاه، وظهر إلى قوم كان يلقيه إليهم من أنه إله، واستتابهم أمير المؤمنين فما تابوا فأحرقهم، وكانوا نفيراً يسيراً، ونفى على الله ب سسبأ عن الكوفة إلى المدائن، فما قتل أمير المؤمنين عليه السلام قيل لابن سبأ قد قتل ومات ودفن فإين ما كنت تقول من مصيره بالشام؟ فقال: سمعته يقول: لا أموت حتى أركل برجلى من رحاب الكوفة فأستخرج منها السلاح وأصير إلى دمشق، فأهدم مسجدها حجراً حجراً، وأفعل وأفعل، فلو جئتمونا بدماغه مسروداً لما صدقنا أنه قد مات. ولما افتضح بهت، وادعى على أمير المؤمنين ما لم يقله.

والشيع الذين يقولون بقوله الآن بالكوفة كثير، وفى سوادها وفى العراق كله يقولون: أمير المؤمنين كان راضياً بقوله: ويقول الذين حرقهم، وإنما أحرقهم لأنهم أظهروا السر، ثم أحياهم بعد ذاك. قالوا: وإلا فقولوا لنا لم لم يحرق عبد الله بن سبأ؟

قلنا: عبد الله ما أقر عنده بما أقر أولئك، وإنما اتهمه فنفاه، ولو حرقه لما نفع ذلك معكم شيئاً، ولقلتم إنما حرقه لأنه أظهر السر.

وأنت رحمك الله، إذا شاهدت الإمامية مع هؤلاء ومع من يقول فى أمير المؤمنين وولده أنهم أنبياء، فإن الإمامية تقول لهم: قد كان هؤلاء الأئمة بين الناس فما ادّعوا النبوة، فيقولون لهم: قد كانوا بين الناس فما ادعوا ولا أظهروا ما يدعون عليهم من الإمامة والنص والوصية والعصمة والآيات والمعجزات، فإن كان ما يقولون لنا من أنهم ما أظهروا ما يدّعون بهتم الناس وليس مع المباهتة مناظرة، وقلنا لكم: أيضاً قد أظهروا ادعاء النبوة، فإن قلتم بالعق قد علمنا أنه لا تخلو الدنيا من نبى موجود فيها قائم العين ولا تقوم شريعة نبى إلا بنبى مثله، ولا يبلغ شريعة نبى إلا نبيه مثله، وقد قال الله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[1] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا

(١) سورة المؤمنون آية ٤٤

صَالِحًا﴾[1] فإن قلتم هذا انصراف عن الضرورات بالظواهر والتأويلات، لأن رسول الله ﷺ قال: لا نبى بعدى، قلنا: فما حالنا نحن وقد ادعينا ذلك، فإن ادعيتم علينا المكابرة ادّعينا عليكم مثله، وبعد فنحن ندّعى أن هؤلاء القوم قالوا لنا ولسلفنا أنهم أنبياء وقد ذكرنا لكم بحجة العقل وحجة السمع، فكيف يريد النبى أنه لا نبى بعده، وأيضاً فنقول لكم: ما فى العقل وجوب إمام معصوم، وإنما هو ظن يظنونه بما ألقاه هشام لكم، وقد بينا لكم من أفعال رسول الله ﷺ وأقواله، وأفعال أمير المؤمنين وأقواله، أن الإمامة بالاختيار، وأن الإمام يجوز أن يخطئ ويعصى. فإن قلتم لنا: أنتم كفار عندنا. قلنا لكم: هذا أول انقطاعكم وأيضاً فإنكم عندنا كذلك، فإنه لا حجة تقوم لكم، ونحن نروى أن النبى ﷺ قال لعلى: لا نبى بعدى إلا أنت ولداك، فإن قلتم هذا كذب ولدتموه، قالت لكم المعتزلة والفقهاء وأصحاب الحديث: قولكم: إنه لا بد من نص ووصية من النبى، وبيان شخص الإمام، وأنه معصوم، وأن الآيات قد ظهرت عليه، شئ وضعه هشام وفرية ابتدعها، والعقل والسمع يشهد بكذبه، فلا يجدون فصلاً وإذا كلم هؤلاء الإمامية من يقول أمير المؤمنين إله فإنهم ينقطعون فى أيديهم أيضاً كما انقطعوا فى أيدى الذين قالوا إنه نبى. لأنهم إن قالوا: لهم جسم لا يكون قديماً قالواً لهم فهشام بن الحكم وأمثاله من الإمامية يقولون فى الله إنه جسم ذو نهاية، وأنه نور وأنه يتحرك ويرى ويلمس، قالوا: والعقل يشهد ذلك.

قالوا: ومع هذا فإنا أخذنا هذا عن الأئمة بالمشافهة، قالوا لهم: دعوا ما حكته المعتزلة عن هشام وأصحابه فى أن الله جسم ونور يتحرك ويرى ويصعد وينزل ويلمس وأنه لا يعلم الشئ قبل أن يكون. وخذوا فيما حكاه عنهم أبو عيسى الوراق وابن الراوندى وأبو محمد الحسن بن موسى النوبختى وأبو سهل النوبختى والسوس النجردى، وأمثالهم من الإمامية، وكتبهم مملوءة بذلك،

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥١

ويذكرونه عن كل من سبق وتقدم من الإمامية، وكذا أيضاً يذكرون عنهم القدر، قالوا لهم: ونحن نروى أن أمير المؤمنين قال فى خطبته وعلى منبره: أنا رفعت سماءها وحفرت بحارها ونصبت جبالها، فإذا قالوا لهم: هذا لا يصح، قالوا: هذا أصح من قول النبى: «من كنت مولاه فعلى مولاه» فيقول الإمامية لهم: فقد قال: أنا عبد الله وأنا أخو رسول الله، قالوا: ما هكذا قال، قد حرفتم القول، إنما قال أانا عبد الله، أأنا أخو رسول الله، على طريق الإنكار لقول من يحكى هذا عنه، فينقطع الإمامية فى أيديهم.

وهؤلاء يروون عن أبى الخطاب محمد بن أبى زينب قال: كنت عند جعفر بن محمد فأستأذنت عليه. هذه الإمامية الذين يقولون فيه إنه إمام وحجة الله على أهل زمانه، فقال: ائذن لهم، عليهم لعنتى وغضبى، فلما دلوا قطع الكلام الذى كان يتكلم به قبل أن يدخلوا، فلما خرجوا أتبعم اللعن وقال: يا أبا الخطاب، ما خلقت خلقاً أبغض إلى من هذه الإمامية، وإنى لأتقيهم أكثر مما أتقى الناصبة، وأتبعهم اللعن، وقال: يا أبا الخطاب. أنا إلهك وأنت رسولى إلى خلقى. وكان أبو الخطاب إذا لبى يقول: لبيك جعفر لبيك.

وإنما أوردنا هذا لأنه مثل ادعاء الإمامية وروايتهم أن أمير المؤمنين وولده كانوا يدّعون أنهم يعلمون الغيب وما فى نفس عدوهم ووليهم، ويظهرون المعجزات، ويدّعون العصمة، فليس لكذبهم عليه غاية، وفى كل حين قد ولد أهل ذلك العصر من الإمامية على أهل البيت غير ما ولده من قبلهم، ويدّعون أن هذا مما قاله النبى ﷺ ونص عليه وما هذا سبيله، وقد أذاعوه فى هذا العصر ووضعوا أنّ النبى ﷺ قال: إن بنتى فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار، فلا يجوز أن يدخل النار أحد من ولد فاطمة، فأعداء رسول الله ﷺ يطعنون عليه بمثل هذا. قلنا: لو كان هذا من نصوصه لجاء مجئ أمثاله ممن نصّ عليه ﷺ أنه لا يدخل النار وأن النار لا تمسه مثل آدم ونوح وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم، بل كان يجب أن يكون العلم بما ادعوه لولد فاطمة عليه السلام أقوى من العلم بنصه على أولئك، لأن عهد هؤلاء

أقرب من عهد أولئك، وهم خلق كثير وأمم عظيمة، أحياء بين الناس، وهذا نص فيهم وحجة لهم، فالعلم به كان ينبغى أن يكون أقوى، فلما لم يكن كذلك علمت أنه أمر لا أصل له، وهو كادعائهم النص والعصمة والمعجزات لأئمتهم.

ولقد قال عظيم من ولد فاطمة عليها السلام وملك من ملوكهم لأبى عبد الله محمد بن على بن زيد بن رزام الطائى الكوفى: نحن أمرنا على يقين، فإن فاطمة ألمنا حصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار، فقال له ابن رزام فهل بلغك أن حواء زنت قط؟ ما كانت إلا حصينة الفرج، فذريتها محرمة على النار، فسكت، وهو كما قال ابن رزام، وفى هذا كلام كبير.

والذى يعرف العلماء أن النبى ﷺ قال: يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد، ويا عباس عم محمد، اعملوا لما عند الله فإنى لا أغنى عنكم شيئاً لا تأتونى بالأنساب ويأتى غيركم بالأعمال، فمن قعد به عمله لم ينهض به نسبه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى أعمالكم، كلكم لآدم وآدم من تراب، والناس سواء كأسنان المشط، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى، فخيركم من اتقى الله.

وكم مثل هذا من قوله، وكم فى القرآن مثل هذا وأنت تعرفه والذى جعله الله فى عقول العلماء من عباده هو الذى قاله رسول الله ﷺ لا يجوز غيره، وهؤلاء القرامطة يدّعون أنهم شيعة أهل البيت، وهم فيما بينهم يتواصون بقتل العلوية أين ما تمكنوا، ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء شر من ولد العباس، وأشد فى الإدلال على الناس بجدهم من أولئك، وقد سلطهم على الناس، وهذا مذكور لهم فى البلاغ السابع والنيموس الأعظم الذى فيه حقيقة مذهبهم الذى يخرجون به إلى من قد بلغوه، وهو وصيتهم لأبى طاهر بن سعيد الجنابى.

ومما يذكرونه الآن للناس مما هذا سبيله، قولهم للمعتزلة: إنكم تقولون إن هذا الرجل الذى هو نبيكم قد زهد فى الدنيا وجعل أهل بيته عنها، وولد

العباس وولد أبى طالب لا يتدافعون أنهم قد جعل لهم خمس الأرض وخمس ما فى أيدى الناس كلهم، حتى يقولوا عظماؤهم وأغنياؤهم وملوكهم وأهل الثروة منهم: لنا فى أموال الناس كلهم الخمس، حتى الأرملة الفقيرة الى تعيش بغزلها لنا فيه الخمس.

فقيل لهم: لو كان النبى ﷺ قد نص على هذا وفرضه لجاء مجئ أمثاله من النصوص، وكان العلم به أقوى من العلم بقسم الصدقات، لقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[1] إلى آخر الآية، ومن قسمة المواريث بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[2] إلى آخر الآيات، لأن هذا نص فى رجال سادة أشراف معروفين، وكان ينبغى أن يكون رسول الله ﷺ قد قسم فيهم خمس جزيرة العرب فقد ملكها، وأن يكون أمير المؤمنين قد قسم فيهم خمس الأرض فقد كان ملك الإسلام كله إلا كورة فلسطين وحدها، ونفذ أمره فيها خمس سنين.

فإن قالوا: قد فعل رسول الله ﷺ ذلك، وفعله أمير المؤمنين حين ملك، قلنا: فقد كان ينبغى أن يكون العلم بذلك حاصلاً لمن سمع الأخبار، ويكون أقوى من العلم بدخوله البصرة ومحاربته لمن حارب بها ومن دخوله إلى الشام ولمحاربته لمن حارب بها، ومن كونه بالكوفة وبالنهروان، وما كان له مع من حاربه بها، لأن قسمة ما ادعوه فعل يتكرر على رجال ونساء صفتهم ما قدمنا، ولا فرق بين من ادعى هذا أو ادعى أنه عليه السلام كان قد أقطع عبيد الله اليمن حين ولاه إياها لتكون له ولولده مما يستحقه من الخمس، وكذا فعل بابن عباس حين ولاه البصرة، وبتمام بن العباس حين ولاه المدينة، وبقُم حين ولاه مكة، وبمعبد بن العباس حين ولاه خراسان، وأنه اقطع عقيل ابن أبى طالب أصبهان، وولد جعفر بن أبى طالب الجبل، والحسن ابنه مصر،

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠.

(٢) سورة النساء آية ١١.

والحسين عليه السلام عمان والهند، أو ادعى أن رسول الله ﷺ قسم ذلك عليهم فى حياته وتقدم إلى أمته بذلك.

والذى يعرف أهل العلم أن رسول الله ﷺ حرم عليهم الصدقات وأوجبها على أغنيائهم لفقراء المسلمين من ليس من بنى هاشم، وجعل للفقراء من بنى هاشم من خمس الخمس من الفئ بمقدار ما يسد به الحلة.

وقد كان يمنعهم إذا سألوه، فكان أمير المؤمنين يتحدث بذلك فيقول: ألا أحدثكم عنا وعن رسول الله ﷺ، إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قمت البيت حتى أثر بثوبها، وطحنت حتى أثر بكفها، واستقت بالقربة حتى أثر بنحرها، فقيل لها: إن أباك قد أتاه سبى وهو يقسمه بين الناس فلو سألتيه خادماً يكفيك، فاستحيت أن تسأله، فمشى معها عمات رسول الله ﷺ ومشينا معها، فأتيناه وهو مشغول بالناس، وطال انتظارنا فرجعنا، فلما فرغ، أخبر بذلك فأتانا، فقال: ما جاء بك يا فاطمة، فاستحيت أن تقول، فقلنا جاءتك يارسول الله لتخدمها من السبى الذى أتاك خادماً، فأنها قد قمت البيت حتى أثر بثوبها، وطحنت حتى أثر بكفها، واستقت بالقربة حتى أثر بنحرها، فقال لها: يا بنية أيتام بدر أحق منك، ألا أعصمك ما هو خير لك من هذا، تسبحين الله كذا وتحمدينه كذا، وذكر الحديث، وهى قصة معروفة طويلة.

وأتته فاطمة مرة أخرى بالحسن والحسين، فقال: يا يا نبى الله أنحلهما، فقال: نحلت هذا الكبير المهابة والحلم، ونحلت هذا الصغير المحبة والرضا، فما زاد على هذا.

وكم قد سأله ﷺ غير واحد من بنى هاشم فمنعهم، وتفصيل ذلك يطول، وهو مذكور فى كتب العلماء. وما كان يعطى المحتاجين منهم إلا من خمس الخمس من الفئ وربما دفعه على العباس يقسمه عليهم.

وكانت لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا، فكانت أرض بنى النضير حبساً لنوائبه، وجزأ خيبر ثلاثة أجزاء، وكانت فدك لأبناء السبيل، فكان عمر ابن

عبد العزيز يعجب من إقطاع معاوية إياها مروان بن الحكم وهى لأبناء السبيل، وقد سألته إياها فاطمة بنته ﷺ فمنعها، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خطب الناس فقال: إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله، لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، فسألته فاطمة إياها رضى الله عنها، فقال: ما كان لك أن تسألينى وما كان لى أن أعطيك. فكان ﷺ يضع ما كان يأتيه منها فى أبناء السبيل.

ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ﷺ، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك، فصارت لى وللوليد وسليمان، فلما ولى الوليد سألته حصته فوهبها لى. وسألت سليمان حصته فوهبها لى، فاستجمعتها، وما كان لى مال أحب إلى منها، فاشهدوا أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه.

فعادة رسول الله ﷺ فى منع أهله معروفة، وكان يعطى سالناس الجزيل الكثير، ويمنع أهله. ولقد سأله رجل غنماً ما بين جبلين فأعطاه إياها كلها، وكم من رجل قد أعطاه مائة بعير وأكثر، وكان إذا أتاه المال لا يدخل بيوته حتى يقسمه كله ثم يدخل، وربما أمسى عنده منه شئ فيبيت فى المسجد إلى أن يقسمه، وكان أصحابه من السابقين يتذاكرون سيرته ﷺ فى هذا، وأنه كما يأتيه الفئ العظيم فيمسى وإن بيوته لصفر ما أدخلها حلواً ولا مراً حتى يرد عليه من بيوتنا.

ولقد دخلت من الأنصار إمرأة على عائشة فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت إلى عائشة بقراش حشوه الصوف، فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: يارسول الله، إن فلانة الأنصارية دخلت علىّ فرأت فراشك، وذهبت فبعثت إلىّ بهذا، فقال: رديه، فلم ترده، وأعجبها أن يكون فى بيتها، فراجعته فقال لها ذاك ثلاث مرات، وكم مثل هذا مع أزواجه فى ستر يراه وغيره مما يطول شرحه، وقد عرفت شرطه على أزواجه وما أنزل الله فى سورة الأحزاب، وقد تقدم لك ذكر ذلك، وأنما

هذا وأمثاله من الأحاديث التى يضعها الملحدة ويتقربون بها إلى نبى هاشم ليغروهم بالناس، وليلبسوا عليهم دينهم، ثم يأتون العلماء فيسألون عنها فى المطاعن على رسول الله ﷺ فيشغبون من كل وجه، فقلَّ ملحد إلا وهو يدعى التشيع ويصنف الكتب فى نصرة الرفض كما هو معروف، وقد تقدم لك ذكر ذلك، والذى يجب على رسول الله ﷺ البيان، وليس يجب عليه ألا يكذب عليه أحد ولا يلزمه ذلك.

وكان أبو الفتح بن فراس الكاتب وهو أحد الشيع ومن كبار الإمامية يقول للإمامية: فدك التى أعطاها رسول الله ﷺ ليست تلك النخيلات التى بالحجاز وإنما فدك التى نحلها رسول الله ﷺ فاطمة هو ما سقته الفرات والنيل ودجلة وسيحون وجيحون، فلأولادها يأكلون من مال أمهم، والشيعة يأكلون من مال مواليهم، وكأنك بهذا قد انتشر وصار له إسناد، وادّعوا فيه التواتر.

وكان أبو الفتح هذا ينزل ببغداد فى الجانب الشرقى فى سوق يحيى، وقريبه مات، وكانت الشيع ترجع إليه فى الرواية ويعرض عليه شعراؤهم شعرهم، مثل أبى الحسن علىّ بن وصيف الجلاء الذى تسمى بالناشئ وحمام بن فراس فى هذا الموضع معروف.

وقد وضعوا أن رسول الله ﷺ قال: إن الصلاة والصوم والزكاة والحج لا تجب على أهل بيتى ولا على شيعتى، ولا يحرم عليهم شئ من هذه المحرمات وإنما هذه عذاب على أعداء أهل النبى وأهل بيته، وما كان لله ليجمع بين أوليائه وأعدائه فى الفروض.

وزوَّر لهم فى ذلك الروايات، وتأولوا فى ذلك القرآن، وقد انتشر هذا وانبث وعليه خلق كثير منهم بسواد الكوفة وبالبحرين وببغداد وبنواحى اليمن وبالشام، ولا يكاد أحد من هؤلاء يصلى إلا إذا حضره الناس ولأجل الناس وفى المشاهدة ليغتر به الناس، وبينما ترى الواحد وقد ادعى التشيع حتى تبرأ

من أبى بكر وعمر والمهاجرين والأنصار حتى قد ادعى أن القرآن مغير ومبدل، حتى ادعى أن له باطناً غير ما عليه العلماء والفقهاء والعامة، ثم لا يلبث أن يدعى أنه ما يحرم عليه لا زنا ولا لواط ولا ربا، ولا تجب عليه عبادة، إلى غير ذلك مما يطول شرحه، وقد علم كل من سمع الأخبار أن رسول الله ﷺ أوجب هذه الفرائض على كل عاقل بلغته دعوته، وأنها بركة ورحمة من الله على عباده، وأنها لا تسقط عن أحد يستطيعها، ولا يحل الزنا والاشتراك فى الزوجات واللواط وغير ذلك لأحد البتة، وأنها على البررة والخاصة، والعلماء ومن أهلل اللبيت أوجب وألزم منها للعامة الفجرة، وأنها ليست بعذاب على أحد، وأن لمن فعلها وقام بحقوقها ولم يبطلها ولم يحبطها الثواب والمدح والإجلال والكرامة فى الدنيا والآخرة، والعلماء يعرفون من سنة محمد ﷺ أن تكاليفه الثقيلة إنما هى على خاصته والسابقين، وأنه كان يولى على أهل بيته ويلزمهم الطاعة لولاته، فقد ولى عتاب بن أسيد مكة وبها من بنى هاشم خلق كثير فكانوا له رعية، وقد ولى على المدينة فى غزواته وأسفاره غير واحد من المهاجرين والأنصار وبها من بنى هاشم ومواليهم رجال كثير وقد ولى زيد بن حارثة على عسكر مؤتة وعلى جعفر بن أبى طالب، فكان هو الأمير دون جعفر، وقد كان هناك غير جعفر هذا، وجعفر رضى الله عنه قديم الإسلام، قديم الهجرة، وقد ولّى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وجعله خليفة على عسكره وجيشه يوم الطائف ويوم الفتح ويوم حنين، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه فى ذلك العسكر وفى هذه المواطن كلها، وقد ولّى رسول الله ﷺ على عسكره وجيشه أبا بكر الصديق فى غزوة تبوك، وأقام بالمدينة يحرض الناس على غزو الروم، وفى ذلك الجيش الذين أمرهم غير واحد من بنى هاشم، وكان أبو بكر يصلى بهم ويأمرهم وينهاهم.

ولما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك قدم أبو بكر وعمر على معظم جيشه وقدمهما أمامه وسار فى آخر الناس فى نفر يسير، وفى ذلك العسكر غير واحد من بنى هاشم، وهى قصة معروفة، وفيها يقول رسول الله ﷺ لمن معه:

كيف ترون الناس صنعوا حين أرهقتهم صلاتهم وفقدوا نبيّهم، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: أليس فى القوم أبو بكر وعمر، إنهما سيرشدان الناس، فإن أطاعوهما فقد رشدوا ورشدت أمهم، وإن عصوهما فقد غووا وغوت أمهم، يقولها ثلاثة.

وقد ولى رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق على الموسم سنة تسع وفيه علىّ ابن أبى طالب وغير واحد من بنى هاشم. وأبو بكر الأمير والمصلى والخطيب والدافع بالناس دون علىّ، ودون أحد من بنى هاشم، وقد استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق على الصلاة فى مرضه، فصلّى ببنى هاشم وبالمهاجرين والأنصار وبالناس كلهم وهناك من بنى هاشم خلق كثير، فكانوا فى كل ذلك سامعين ومطيعين وما كلفهم من الشدائد فأعظم، وللمثل هذا قال أمير المؤمنين لمعاوية فى كتبه إليه، وقد ذكر فيه الشدائد التى كلفها رسول الله ﷺ بنى هاشم: فكان إذا حمى الناس ودعى إلى البراز قدم رسول الله ﷺ أهل بيته فوقّى بهم أصحابه حر السيف وحر الأسنة، فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وقتل أخى جعفر يوم مؤتة. وقتل زيد بن الحارث يوم مؤتة، وأراد لو شئت لذكرت أسمه مثل الذى أرادوا من الشهادة مع نبى الله ﷺ غير مرة غير أن آجالهم عجلت ومنيته تأخرت، فما سمعت ولا رأيت أحداً هو أنصح ولا أطوع لله ولرسوله فى طاعة ربه، ولا أصبر من أهل بيته، وفى المهاجرين خلق كثير يعرفونه لهم، فجزاهم الله خيراً.

فتأمل رحمك الله هذه السيرة من رسول الله ﷺ، فإنها ضد سيرة طلاب الدنيا وخطاب الملك فى أولاوهم أقاربهم وأهل بيتهم، وفى هذا كلام كثير، وقد تقدم له نظائر وأمثال، وقد تقدم ذكر وصاياه لأصحابه فى مرضه فارجع إليها وتأملها.

وتأمل حالهم حين قبض رسول الله ﷺ، وقد خاضوا فيمن الخليفة بعده كما تقدم لك فما كان من بنى هاشم والعباس وأبى سفيان مع أمير المؤمنين، وما كان من السقيفة، وقد جرت تلك الخطوب التى قد تقدم ذكرها

يوم موت رسول الله ﷺ على وجه الأرض لم يدفن بعد، وقد تذاكروا وخاضوا وأدلى كل قوم لما لهم من الفضائل وبما قاله رسول الله ﷺ فى كل فريق، وقد تجاذبوا الإمارة وفيمن تكون الرئاسة، فانظر كيف أجمعوا كلهم عليل تزكية رسول الله ﷺ، والتسليم لأوامره، والاقتفاء بأثره، والطلب لوصاياه فما هناك أحد منهم أظهر معتبة أو شك فى شئ من أمره وأفعاله ﷺ ولا سأل على طريق الاستفهام عن شئ من أموره بوجه من الوجوه، هذا والعهد قريب، وفيهم من يريد شرف الرئاسة فى قومه، فما رجعوا إلا إلى وصاياه فى أن يكون فى الأخيار من قريش، وهذا موضع يخرج فى الأضغان ويظهر الشحناء.

ثم أنظر كيف جعلوها فيمن كان يجله ويعظمه ويقدمه، وفى أهل السابقة، وهناك من سادات العرب وذوى الشرف والنخوة، والعدد والعدة وكثرة العشيرة وظهور الثروة مالا يحصى كثرة، ثم هناك من الأقارب من سادات بنى هاشم خلق كثير، ولو لم يكن إلا العباس مع فضله وعقله الذى كان يدعى حليم قريش، وإذا كان حليم قريش وقريش أحلم العرب إذ ذلك وأعقل العرب فهو حليم العرب كلها، فجعلوها فى أبى بكر وهو أضعف حىّ فى قريش وأقله عدداً وأظهر فقراً، فقد كان له مال فأنفقه على رسول الله ﷺ وفى نوائب الإسلام، حتى لم يكن له ثوب يكفن فيه حين مات فوصّى أن يكفن فى أطماره الرثة، فلما قيل له: ألا تشترى لك ثوباً جديداً يكفيك فيه، فقال: الحىّ أحوج إلى الجديد.

ولما استخلف، غداً إلى السوق وعلى عاتقه أثواب يبيع ويشترى، فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: هذا خليفة رسول الله ﷺ أصبح غادياً يبايع الناس فى الأسواق، وله بشأن المسلمين شغل، ولن يبلغ أحداً خبره من سادات العرب وملوك اللعجم إلا احتقروا أمركم، فأتوه وكلموه فى ذلك، وقالوا له قولاً غليظاً شديداً، فقال: إنما أنا كاسب أهلى، فإن أنا أضعتهم فأنا لمن وراءهم أضيع، وقد كرهت أمركم وحرصت أن أكون وزيراً فأبيتم إلا بيعتى وأكرهتمونى. وكان من أمرهم معه ما هو مذكور.

فتأمل هذه المواطن والمقامات، فكم فيها من دلائل وعلامات على سلامة النبوة من كل دنس، وطهارتها من كل لبس.

فإن قيل: أو ليس الرافضة تدّعى أن أبا بكر غلبهم وقهرهم، وأنهم فى السقيفة اتزروا بالأزر الصنعانية واقتتلوا على الملك والخلافة.

قلنا: قد فرغنا من هذا، وبينّا بطلان هذه الدعوى، وأن القوم الذين اعتقدوا نبوة النبى ﷺ وتدينوا بصدقه واتبعوه بتلك الشرائط التى قدمنا ذكرها، هم الذين اجتمعوا على خلافة أبى بكر واستخلفوه واعتقدوا إمامته فطهارته، وتقربوا إلى الله بطاعته وامتثال وصاياه وأوامره، فلا فرق بين من ادعى هذا وأن أبا بكر غلبهم وقهرهم وخدعهم وسحرهم، وبين من ادعى ذلك فى رسول الله ﷺ وادعى ذلك فى أمير المؤمنين، ومن أطاعه واعتقد إمامته. ولا فرق بين من ادعى أنهم لبسوا الأزر الصنعانية أو ادعى أنهم تقاتلوا عليها بالسيوف والرماح على الخيول، فإن الملك بمثل هذا يؤخذ لا بالأزر، وإنما هذه دعاوى من يريد تشكيك المسلمين فى دينهم لتستوى له المطاعن فى نبوة نبيهم ﷺ.

وأهل المعرفة يعلمون أن أبا بكر مضى إلى الأنصار وهم أهل العدد والعدة والبأس والنجدة، وهم أكثر من جميع المهاجرين وجميع قريش الذين بالمدينة وتبعه عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة، فكيف كان يغلب الأنصار بهؤلاء الثلاثة؟ ولو أراد أن يغلبهم بكل من بالمدينة من قريش لما أطاقوا ذلك، ولكن الأنصار رحمهم الله طلبوا فى بدء الأمر الخلافة فلما بيّن لهم أبو بكر أنه لا ينبغى ذلك رجعوا عنه لله وابتغاء وجه الله.

قال متكلم الشيع: خدع أبو بكر الأنصار بأن قال: منكم الوزراء ومنا الأمراء، فأطمعهم ثم غدر بهم، فما استوزر أحداً منهم لا هو ولا من بعده من الخلفاء، فلهذا أجابوه واتبعوه.

قلنا: هذا من دعاويكم التى لا دليل عليها، والوزارة التى ذكرها أبو بكر

لهم إنما هى المعونة والمؤازرة فى طاعة الله لمن يلى الأمر من قريش، فهذا زيادة فى كلفة الأنصار فى شدة الوطأة عليهم والمشقة الشديدة فيما ألزمهم من معونة الخلفاء، فأين الإطماع الذى ادعيتم عليهم؟ وهذا الذى شدطه أبو بكر عليهم إلى النفور عنه وإلى الإيحاش منه أقرب، فهذه الوزارة التى شرطها عليهم.

وهذا مثل قوله لهم فى السقيفة حين قالوا له: اقبل البيعة فأبى، وقا ل: ولّوا الإمارة عمر أو أبا عبيدة[1] ودعونى أكون لهم وزيراً، وكذا قال عند وفاته: ليتنى يوم سقيفة بنى ساعدة لم أقبل البيعة وجعلتها فى عمر أو فى أبى عبيدة، وكنت وزيراً لا أميراً يريد معيناً، وكذا قال أمير المؤمنين حين مشوا إليه بعد عثمان وقالوا له: نوليك أميراً فابسط يدك نبايعك، فقال: انظروا غيرى تبايعوه وأبايعه معكم، ودعونى أكون لكم وزيراً، فلأن أكون لكم وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، يريد معيناً.

ولكن هؤلاء القوم نظروا إلى من يقال له الوزير فى زمن ملوكنا ممن يريد سلطان الزمان منه جباية الأموال، وترتيب أصحاب الضرائب والمواصير فى ظلم الناس، وإقامة المستخرجين والمصادرين للناس فى ديوان الاستدراك، وتمدحه الشعراء، ويجلس وحوله القيان وأصحاب الملاهى، وله القصور على الأنهار والبحار، كابن كلّس بمصر، وابن بقية ببغداد، وفلان وفلان بالعراق وفارس، فظنوا أن الوزارة التى ذكرها أبو بكر هكذا ينبغى أن تكون، أو ما علموا أن موسى سأل ربه فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[2] وقال رسول الله ﷺ: وزيراى من أهل السماء جبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض أبو بكر وعمر، ولولا فساد الزمان وغلبة الجهل لما كان يجاب عن مثل هذا الكلام.

---

(١) فى المخطوط: ابو عبيدة.

(٢) سورة طه آية ٣٠.

وبعد فإن العاقل يعلم بطلانه من كل وجه، فإن الأنصار لو كان غرضهم الدنيا لقالوا لأبى بكر: ولم ندع الإمارة ونصير تبعاً لك والدار دارنا والبلاد بلادنا والبادية باديتنا والعدد والعدة فينا والبأس والنجدة لنا، وأنت وصاحبك وجميع قريش جئتمونا هراباً إلينا مستجيرين بنا، فما بنا حاجة إليك أن تكون أنت أتباعنا وحاشيتنا فكيف تكون أميرا علينا، وما حاجتنا والدنيا طلبتنا ونيتنا والعاجلة بغيتنا أن نتكلف هذه التكاليف الشديدة التى أتانا بها صاحبك، من الصلاة والصيام والزكاة والحج والمواساة والحدود ومعاداة الأمم واللمجاهدة للملوك حتى يقيموا دينه ويتمسكوا بشريعته، ونسفك دمانا فى ذلك، ونكفر أسلافنا اللذين خالفوا دينه وشريعته.

وهذا مثل دعوى من ادعى أن رسول الله ﷺ خدع المهاجرين والأنصار بغير ما ادعى هؤلاء عليهم، فقال عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1] فأخبر عن نياتهم وشهد بصدقهم، وقال فى الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] فأخبر أنهم يؤثرون الفقر فى طاعة الله، ويواسون المحتاجين فى ذات الله، مع ما بهم من الخصاصة، وشهد لهم بالفلاح، وقال رسولل الله ﷺ: «لو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووواديهم، وقال لهم: إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع»، إلى غير ذلك مما قاله فيهم رضى الله عنهم.

فهذه الشيع تقول فيهم بخلاف ما دل عليه العقل وبخلاف ما قال الله

---

(١) سورة الحشر آية ٨.

(٢) سورة الحشر آية ٩.

وبخلاف ما قال رسوله، ولكن الأنصار رحمهم الله لما علموا أن الإمامة لا تكون فيهم جعلوها فى الفاضلين من مهاجرة قريش، ولو أرادوا الدنيا والملك لكذبوا أبا بكر حين قال لهم إن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش» أو كانوا يقولون: وإن قال هذا فإنا لا نقبل، فقد كانوا على ذلك قادرين والغلبة والعز لهم وفيهم، ولو أوادوا الدنيا والملك لقدحوا فى رسول الله ﷺ ولكذبوا عليه ولقالوا فيه كما يقول هؤلاء، فتعلم بهذا صحة النبوة وسلامة رسول الله ﷺ من كل عيب، وطهارة أبى بكر والمهاجرين وبراءتهم فى صغير القبيح وكبيره، وإن الأنصار ما أرادوا إلا الله والدار الآخرة فى تصييرهم الخلافة فى أبى بكر وأمثاله من قريش، وأنهم قدموه لأن رسول الله ﷺ قدمه، ولقوله:

«ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى، ثم اللذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» فكان أبو بكر وعمر هما اللذان يليانه إذا قام لصلاته، وإذا استوى فى مجالسه، ولهذا قالوا وهم يصفون مجالس رسول الله ﷺ ومنازل أصحابه عنده، قالوا: إن كانت حلقة رسول الله لتشتبك حتى تكون كالأسوار، وإن مجلس أبى بكر منها لفارغ ما يطمع فيه أحد، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس، وأقبل إليه رسول الله ﷺ بوجهه وألقى إليه حديثه، وسمع الناس.

ولقد أقبل العباس يوما فتنحى له أبو بكر وأجلسه معه، فعرف السرور فى وجه رسول الله ﷺ بتعظيم أبى بكر للعباس، فاعرف هذا فإن الإمامية اليوم يروون عن رسول الله ﷺ أنه كان يلعن أبا بكر وعمر وعثمان وأمثالهم من المهاجرين والأنصار، وأنه كان يتلو فى ذلك القرآن كما كان يتلوه فى لعن فرعون وهامان وقارون وإبليس وأبى لهب وأبى جهل، وهذا باب ينبغى أن تراعيه، فإن الأدلة تشهد ببراءة هؤلاء من كل عيب، كما تشهد ببراءة رسول الله ﷺ، والكلام على الفريقيم ممن كشف قناعه فى الطعن على رسول الله ﷺواعتقد افتعاله واحتياله ونسب الطعن عليه بتهمة أصحابه.

وأيضاً فإن أبا بكر ما قبض الأموال لنفسه ولا لولده ولا لأصهاره ولا

لأهل بيته، ولا أقطعها القواد والجند فنوجه فى ذلك تهمة، وإنما جعلها لأبناء السبيل الذين لا يعرفهم ولا يدرى من هم، وإنما هم غرباء فقراء يطرقون ويجتازون.

وقد قال أبو على بن عبد الله العلوى المصرى الفاطمى سالحسينى أفقه أهل بيته فى زمانه، وأرواهم لأحاديثهم وأخبارهم، وكان رحمة الله عليه من الزهد والنزاهة والعبادة بالمنزلة التى لم يكن فى أهل بيته وزمانه مثله، فقال رحمه الله: من الدلالة على براءة ساحة أبى بكر الصديق مما رمته الرافضة به أنه منع العباس وفاطمة وأزواج النبى ﷺ أموال رسول الله ﷺ وجعلها فى سبيل الله، فإنه إنما فعل هذا وتم له وأقدم عليله مدلاً بالحق الذى كان عليه، ولو كان مبطلاً لأعطاهم إياها وأكثر منها، لأنه برسول الله ﷺ عزّ، وبه تقدم، وبه كانت له الرئاسة، وبه صار صدّيقاً، وأصحابه وأنصاره جعلوه خليفة، فلو كان مبطلاً وطالب دنيا لأعطاهم ذلك وأرضاهم بكل ما يقدر عليه ليتم له ما يطلبه من الملك، فليس من الحزم أن يمنعهم هذا المقدار وينفرهم ويوحشهم لأجل شئ هذا قدره، وقد كان عاقلاً حازماً بالأمور عارفاً بالأمور لا يدفعه عن هذا من عرفه، فإنما منعهم ذلك لأن رسول الله ﷺ منعهموه[1]. ذكر أبو على رحمه الله هذا ومعناه فى رسالته التى بين فيها من الرافضة، ومن الناصبة، ومن الشيعة.

يزيدك بذلك علماً، أن معاوية بعد أن قاتل بنى هاشم وقتل منهم ومن شيعهم، وملك الأرض، واستتب له الأمر، حتى ما بقى أحد يقاومه أو يدفعه، جعل لأعدائه من بنى هاشم ومن كان يخافه من قريش العطاء الجزيل، استكفافاً لهم، وليتم له ملكه، وليستقيم له أمره وسلطانه، فكان يعطى الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم لكل واحد منهم فى كل سنة ألف ألف درهم، ويقضى حوائجهم، ويتبع ذلك بغيره من الألطاف والهدايا،

---

(١) فى المخطوط: منعموه.

وأبو بكر رضي الله عنه لم يعطهم شيئاً من ذلك، بل كان يعطيهم على قدر الحاجة، ويسوى بين الناس كلهم فى العطاء.

ولما اتسعت الأموال فى زمن عمر، ودون الدواوين، وأعطى من شهد بدراً، وسوى بين الموالى والعرب ممن شهدها فى ذلك، سألوه الصحابة فى أن يجعل للحسن والحسين مثل ذلك، وكان مقدار خمسمائة دينار، تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وبراً به ﷺ فقد كان يحبهما، فأشاروا عليه بذلك، وأذنوا له فيه، فجرى أمر عمر على ذلك، وعليه عمل عثمان، وعليه عمل أمير المؤمنين حين صارت الخلافة إليه.

ولقد سأل خالد بن المعمر السدوسى أمير المؤمنين فى أن يزيدهما رضى الله عنهما فى عطائهما فلم يفعل، وراجعه، فغضب أمير المؤمنين فقال: ما كنت لأزيدهما على ما فرض لهما عمر، وسأله عبد الله بن جعفر فى أن يزيد عائشة وهى بالبصرة فقال: ما كنت لأزيدها عما فرض لها عمر، وسأله أخوه عقيل ليزيده على ما فرض له عمر فلم يفعل، وراجعه فلم يفعل وسأله جعدة بن هبيرة المخزومى وهو ابن اخته أن يعطيه فما زاده على ما فرض له عمر، وقال له أتريد أن يكون خالك سارقاً، وكان رضى سالله عنه لا يأخذ فى خلافته وسلطانه إلا ما فرض عمر، ومثل هذا كثير.

فإن قيل: ولم لا عرف رسول الله ﷺ أئمته وأزواجه أنهم لا يرثونه فكانوا لا يحتاجون أن يسألوا أبا بكر؟ قيل لهم: الذى يلزم رسول الله ﷺ أن يقيم الحجة، ويقول، وقد فعل، وعند حاجة أهله إلى ذلك عرفوه ووجدوه قد قاله وعلموا ذلك، ومن كان الحق طلبته ففى أقل قليل مما ذكرنا كفاية، ولو لم يكن إلا فعل أمير المؤمنين رضي الله عنه وشبهه.

وقد علم أهل التحصيل أن فاطمة وأهل بيت رسول الله ﷺ أحب إلى أبى بكر وعمر وعثمان وأولئك السابقين من أولادهم وأسماعهم وأبصارهم، وهم فتحوا الدنيا ودعوا أهلها إلى حب رسول الله ﷺ وبنى هاشم، وسلموها إليهم. ولم يقل هذا من طريق حسن الظن بهم. ولكن بدلائل العقول التى قد

تقدم ذكرها فى غير موضع من هذا الكتاب.

وقد سأل موسى أخاه هارون عليهما السلام وأخذ برأسه يجره إليه، ثم رجع إليه حين عرف الجواب عند حاجته إليه. ففير منكر أن تعرف فاطمة وأهل رسول الله ﷺ ما احتاجوا إليه من أبى بكر.

ولم يكن لقائل أن يقول: فلم لا عرف موسى الحال قل مصيره إلى أخيه فكان لا يحتاج أن يجر برأس أخيه ويعاتبه ذلك العتبا، ولم لا عرفه وجه الصواب فى حرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، فكان لا يحتاج إلى أن يلقى العبد الصالح الذى كان يتعلم منه بذلك الجفاء ثم يعتذر إليه بأنه نسى. ولم لا عرف سليمان عليه السلام حال المرأة الملكة، ولم لا أغناه من تعريف الهدهد ومساءلته وطول مراجعته؟ ولكن من وضع هذا غرضه ما قدمنا، وعنده أن أبا بكر وعمر وعثمان وأمثالهم وأشباههم من المهاجرين والأنصار، ما صحبوا رسول الله ﷺ للإعلام التى التى كانت معه، ولا لبصيرة فى دينه، وما اعتقدوا قط نبوته ولا صدقه، ولا انطووا عللى تعظيمه وإجلاله، ولا عرفوا له قدراً ولا أقاموا له وزناً، وإنما كانوا يراؤونه ويرائيهم، وينافقونه وينافقهم، وإنما كان غرضهم الدينا والعاجلة، وكانوا يتربصون به وينتظرون موته ليكونوا ملوكاً بعده، وأنهم قد اغتصبوا مصلاه ومقامه فى حياته وفى جوف بيته، ونحو خليفته ووصيه فى حياته وبعد موته، وضربوا ابنته وقتلوا جنينها فى بطنها.

وقد علمت رحمك الله على أى وجه كانت إجابتهم لرسول الله ﷺ ومتى أجابوه وما لقوه فى إجابته، وقد علمت بما تقدم لك فى دلائل العقول أنهم قد اعتقدوا نوته وصدقه، وأن المتأمل يعلم ذلك قبل العلم بنبوته، ويعلم أنه كان يحبهم، وأنه قد فرض موالاتهم ومحبتهم كما فرض بغض أولئك اللذين قدمنا ذكرهم، وعلمنا أنه لم يمكن له حرص فى الإمارة إلا بمقدار القيام بحدود الله، وأن كل واحد منهم قد تمنع وود أن غيره قد كفاه، فقد امتنع أبو بكر منها واجتهد أن يكون فى غيره فأكرهوه عليها، ولم يكن لعمر فيها رغبة ولا

منه لها طلب فاختاره أبو بكر وأدخله فيها، وعاتبه طلحة وغيره على ذلك وقالوا له: عمر رجل مهيب فاستعمل علينا أحمد طريقة فى حسن الخلق منه، فقال: لا، هو خير لكم وأقواكم عليكم، وقال: اللهم إنى وليتهم ولم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، وقد حضرنى سمن أمرك ما حضر، اللهم عملت فيهم بالعدل جهدى، وآثرت محبتك على محبتى، واجتهدت لهم الرأى، فوليت عليهم خيرهم لهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على رشدهم، ولم أرد به صحابة عمر وأنا خارج من الدنيا داخل فى الآخرة، فاخلفنى فيهم فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح لهم ولاتهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هذى نبيه نبى الرحمة ﷺ، وهدى الصالحين بعده، وأصله له رعيته، وأسلم لعمر أن لا يكون تلبس من هذا الأمر بشئ، وذلك أن الفارغ من أمر الناس يقبل على شغل نفسه، وأن والى الناس يتعرض فيما لا يدرى ما يختم له به فى آخر عمره، فإن هذه الدنيا قد غرّت من كان قبلكم وتنافسوا فيها فأورتهم موارد الهلكة، فندموا حيث لا تنفعهم الندامة، قد انقطعت الآمال، وعاينوا أعمالهم، فلا يقبل من محسن عمل ولا من مسئ نزوع عن خطيئة، فمن استطاع أن يقدم عملاً يعيذه الله به من مساوئ يوم القيامة فليفعل.

فما حقد عمر على طلحة ما قاله ولا تنكر له ساعة، ولقد جعلها عمر شورى فى ستة من غير رغبة كانت من واحد منهم إليه فى ذلك ولا مسألة، ولم يقل أحد من أولئك السابقين الذين لم يدخلهم فى الشورى لم لا أدخلتنا فيها، ولا قالوا هذا بعد موته، ولا عيب أحد عليه، وقد جعلهم كلهم لصهيب رعية وهو مولى، فصلى بهم ثلاثة أيام إلى أن استخلفوا عثمان، فما أنكروا ذلك. لتعلم زهدهم فيها، وأنهم كانوا يرونها مع الكلف الثقيلة، فإذا وجدوا من يقوم بحقوقها ويحمل أثقالها استراحوا إليه وتمنوا مكانه.

ولما دفن عمر، وأخذ أهل الشورى فى الانصراف، ناداهم المهاجرون والأنصار إلى أين أيها الرهط، أما سمعتم عهد أمير المؤمنين، اجلسوا واختاروا واحداً منكم، فجلسوا ناحية يتشاورون، فقال أبو طلحة الخزرجى:

أبرموا أمركم أظنكم تتنافسونها، لقد كنت أرى أنكم تتدافعونها، فتبرءوا من المنافسة فيها، وأنهم إنما يديرون الرأى فى واحد منهم.

فتعلم من ذلك أن أمرهم الزهد فيه، وأن الطريف الغريب أن يرغبوا فيها، فردوا الأمر إلى عبد الرحمن ليختار واحداً منهم، فأخرج نفسه وابن عمه منها، وأخرج الجماعة واختار عثمان وقال: قد شاورت ونظرت، فما رأيت الناس يعدلون بعثمان أحداً، فبايعه الناس وعبد الرحمن وبايعه على بعده، فما أنكر ذلك أمير المؤمنين ولا طلحة ولا الزبير ولا سعد بن أبى وقاص ولا تعتبوا، ولهذا كان يقول عثمان للذين تنكروا له فى آخر عمره: أدخلت فى الشورى من غير طلب منى ولا رغبة، ثم اجتمع الناس علىّ من بين أهل الشورى من غير طلب ولا رغبة فبايعونى، فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون متبعاً غير مبتدع.

وأما أمير المؤمنين ﷺ فقد عرضت عليه، وعرضها عليه[1] العباس وبنو هاشم وبنو عبد مناف يوم وفاة النبى وبعد عثمان فأباها وردها، واختلفوا إليه أياماً كثيرة فامتنع منها، ومد يده فقبضها وقال: اختاروا غيرى أبايعه وتبايعونه.

وما كان من طلحة والزبير من المصير إلى البصرة فلم يكن للرغبة فى الإمارة ولكن للطلب بدم عثمان، فقد كان حرقوص بن زهير وتلك الجماعة أفحشوا فيما أتوه، وقد كانوا شكوا إلى طلحة عمال عثمان فأعانهم على عثمان، وظن أنهم صادقين، فتجرؤوا على عثمان بمعاتبة طلحة له ومعونته إياهم عليهم.

فلما اغتالوا وقتلوه، ندم طلحة أشد الندم على ما كان منه إلى عثمان. ولما نزل هو والزبير وعائشة ومن كان معهم حين ساروا إلى البصرة الجفير أرسل عثمان ابن حنيف الأنصارى عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى إلى

---

(١) فى المخطوط: على.

عائشة فقال: انطلقا فاعلما علمها وعلم من معها، فقالا: يا أم المؤمنين، أخبرينا عن مسيرك هذا أعهد عهده رسول الله ﷺ أم رأى رأيته، فإن أميرنا عثا إليك، فهل أنت مخبرتنا؟ قالت: [1] بلى هو رأى رأيته واله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم، ولا يعطى لبنيه الخمر، إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ فأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا لعنه الله ولعنة الرسول، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا تره، ولا عذر أنا نقمنا عليه ضربة السوط، وموقع النحاية المحماة، وإمرة الوليد وسعيد، فعدوا عليه فاستحلوا منه الحرم الثلاث: حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام، بعد أم مصناه كما يماص الإناء فركبوا هذه منه ظالمين، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا بدار قوم كارهين لمقامهم، ضارين غير نافعين ولا مبقين، لا يقدرون على الامتناع ولا يأمنون، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا، وقرأت: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾[2] إلى آخرها، ثم قالت: غضبنا لكم من سوط عثمان فما أنصفنا عثمان إذ لم نغضب له من ذسيفكم، فهذا شأننا، معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر نحثكم على تغييره وننهاكم عنه.

فخرجنا من عندها فأتيا طلحة فقال له: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قال: أو لم تبايع علياً؟ قال: بلى، وذكر شغب المصريين -الذين غزوا عثمان- فى البيعة، وقولهم للناس: من لم يبايع قتلناه، ثم قال: وما أستقيل علياً إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان، ثم أتيا الزبير فسألاه، فقال مثل ما قال طلحة سواء. فهذا الذى أخرجهما لا طلب الإمارة والمنافسة فيها، ثم أقاما بالبصرة وترددت الرسل بينهم وبين أمير المؤمنين، وتقرر الأمر بينهم على أن يقدم أمير المؤمنين عليهم بالبصرة، ويكون الأمر له، ويستقبلون النظر فيمن

---

(١) في المخطوط: قال.

(٢) سورة النساء آية ١١٤.

غزا المدينة، فأفسد الأمر عليهم ابن السوداء وأمثاله، كما تقدم ذكره.

فإن قيل: كيف تقولون مما كان لهم فى الإمارة رغبة وهذا عثمان قد قال له عبد الرحمن بن عدس فى المصريين ليملأ الكتاب الذى وجدوه عن عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى ضرب المصريين المتظلمين وحبسهم، وأن لا يسلم الأمر إلى محمد بن أبى بكر الصديق ولا يلتفت إلى الكتاب الذى معه، فقالوا له: إمام المسلمين يكتب بضرب المسلمين وحبسهم ويظهر شيئاً ويبطن خلافه، فقال: ما كتبت ولا أمرت ولا علمت، قالوا: نصدقك، ولكن تختلع لضعفك عن القيام بها، ولخبث بطائنك. فقال: لا أنزع قميصاً قمصنيه الله، فما خلعها[1] حتى قتل.

وهذا على قد خولف عليه، ورجع أصحابه عنه الذين صاروا خوارج، وأرادوا أن يتوب عن الحكومة أو يعتزل الأمر فما فعل، وقاتلهم وقتلوه وما نزل عن الخلافة. وقد سأله أهل الشام أن يعتزل لينظروا فى الأمر، وفيمن قتل عثمان، ثم يولون الأمر بعد ذلك من يرون، فما اعتزل، وقد خلعه رسوله وصاحبه الذى أرسله حكماً فى دومة الجندل فما قبل حكمه.

وقد تولاها الحسن فما اعتزل حتى اضطهده معاوية، وقد أرسل الحسين إلى أهل الكوفة وطلبها، وخرج إليهم لأجلها، فلما أحاط به عدوه أرادوه أن ينزل على حكم عبيد الله بن زياد وعلى حكم يزيد بن معاوية ويبايعه ويقر له بالخلافة ويبرأ من الخلافة، فما فعل حتى قتل، فأية رغبة تكون أشد من هذه الرغبة.

قلنا: الذى عمله عثمان وعلىّ والحسن والحسين هو الصواب، وما كان يحل لهم أن يختلعوا، ولو فعلوا لعصوا ربهم، لأنهم كانوا أحق بالأمر ممن ينالهم الاختلاع، وهو فرض قد تعين عليهم القيام به. وقد كانوا أدخلوا فيه

---

(١) في المخطوط: في جعلها

وصحت البيعة لهم، وإنما قلنا إن المهاجرين الأولين لم يكونوا يرغبون فيها إذا وجدوا من أمثالهم من يقوم بها، فأما بعد دخولهم فيها فلا يحل لهم الإفراج عنها وتركها لأجل الجهال الذين خالفوهم فيها، بل يجب عليهم مجاهدتهم إذا وجدوا أعواناً، فإذا لم يجدوا كان لهم أن يعتزلوها إلى أن يجدوا أعواناً كما فعل الحسن رضى الله عنه حين أسلمه أهل الكوفة.

وما يحل لمسلم أن يخلى أئمة الضلالة وولاة الجور إذا وجد أعواناً وغلب فى ظنه أنه تمكن من منعهم من الجور كما فعل الحسن والحسين رضى الله عنهما، وكما فعل القراء حين أقاموا ابن الأشعث فى الخروج على عبد الملك بن مروان، وكما فعل أهل المدينة فى موقعة الحرة، وكما أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية، وكما فعل عمر بن عبد العزيز، وكما فعل يزيد ابن الوليد بن عبد الملك، فيما أنكروه من المنكر.

ويزهد المهاجرين الأولين فى الخلافة كان يضرب المثل كما قد تقدم ذكر ذلك، وعثمان وعلى رضى الله عنهما فما عهدا فى أحد البتة وأبو بكر وعمر لما عهدا لم يكن العهد فى أحد من أولادهما ولا من أهلهما.

ولما عزم معاوية فى العهد لابنه يزيد فرق الأموال، وأخذ له على أهل الشام، وأسل إلى المدينة وكان أميرها منقبله مروان بن الحكم وأبا زرعة روح بن زنباع الجذامى، ففرق الأموال، وقام مروان فى الناس خطيباً وقال لهم: إن أمير المؤمنين معاوية قد جعل لكم ملجأ تلجئون إليه بعده وهو ابنه يزيد فقوموا وبايعوا، فلكم كذا وكذا، وذكر ما لمن أطاعه، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق: يا بنى أمية إن هذا الأمر كان لرسول الله ﷺ، وقد كان فى أهله من لو جعله فيه لكان له أهلاً فلم يفعل، وكان لأبى بكر وكان فى أهله من لو جعله فيه لكان له أهلاً فلم يفعل، وقد كان فى عمر وقد كان فى أهله من لو جعله فيه لكان له أهلاً فلم يفعل، فأعدتموها يا بنى أمية أعجمية، كلما هلك هرقل قام هرقل، فانفلَّ الجمع، فقال له مروان: أنت الذى أنزل الله فيك:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾[1] إلى آخر القصة، فسمعت عائشة من وراء الحجرة فقالت: كذبت، فى غيره نزلت، وأما أنت فقد لعن رسول الله ﷺ أباك وأنت فى ظهره.

فاعرفكم فى هذا من معنى ودلالة من وجوه كثيرة منها: أن ولد أبى بكر وغيرهم ينطقون بالحق فى زمن الجبابرة الذين قد أفنوا الأمم بالسيف وما يكاد أحد ينطق إلا بما يهوون ويريدون، ومنها إدلال هؤلاء بصحة إمامة أبى بكر وعمر وبراءتهما من كل عيب، فما نطق مروان ولا أحد من بنى أمية بعيب مع حاجتهم إلى ذلك، وفيهم الملك ولهم الأمر، والذى قد غاظهم وأغضبهم ولد أبى بكر.

ولما حج أخذ من كان يصلح للإمامة من قريش ومن كان يخافهم مثل الحسين وعبد الله بن الزبير وابن عمر، فقال لهم: بايعوا يزيد، فقال له ابن الزبير: ارض منا بسيرة رسول الله ﷺ فإنه ترك الناس فاختاروا لأنفسهم بعده من رأوه أهلاً لها، أو بسيرة أبى بكر فتتص على رجل مرضى عند الأمة ليس من أهلك، أو كما فعل عمر فتجعلها شورى من قوم مرضيين معروفين ليس فيهم أحد من أهلك، فلك وللنا بهؤلاء أسوة، فغضب معاوية، وهددهم، وتوعد الناس وقال: لستم فى زمن أبى بكر وعمر وإنما هم بنو أمية، من عصاهم أوجلوه السيف، فلاذت تلك الجماعة بعائشة وخافوه على أنفسهم فأرسلت إليه فجاءها وكلمته فى أمرهم وقالت له: قد كان لمن يقدمك بنون ما ابنك مثلهم، فما رأوا فى بنيهم ما رأيت فى ابنك، فما زال يخرجها من باب وتخرج معه حتى أيبست ريقه انقطاعاً فى يديها، إلى أن قالت: إنما هو ملك بباطل تجعلونه بنى أمية فيمن تهوونه.

وفى هذا مثل ما فى الذى قبله وأكثر، قال قائل من الإمامية: أنتم تزعمون أن علياً كان يرضى سيرة أبى بكر وعمر وقد قال له عبد الرحمن بن

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٧.

عوف فى الشورى: أوليك هذا الأمر على أن تقضى بكتاب الله وبسنة رسول الله وسيرة أبى بكر وعمر قال: أما بكتاب الله وسنة سول الله نعم، وأما سنة أبى بكر وعمر فلا، فما الذى يبقى بعد هذا؟

قيل له: هذا يبطل من وجوه منها: أنكم تقولون أن علياً رضي الله عنه[1]، كان فى زمن هؤلاء فى تقية وخيفة يمتثل أمرهم ولا يجسر يردّ عليهم ولا يظهر خلافهم، وكذا كان بعد موتاهم، وفى سلطانه وخلافته ممعه مائة ألف سيف، يقولون: ما جسر أن يظهر مخالفتهم ولا عيبهم لا الرد عليهم، لأن أعوانه ومن كانوا معه كانوا يتدينون بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان، فلو عابهم أو اتهموه بعيبهم لقتلوه.

قلتم: إنه خرج من الدنيا وما أظهر ما فى نفسه، وإنه سار فى أموال رسول الله ﷺ فى خلافته بسيرتهم، وقرأ هذا القرآن، وصلى التراويح، وحيا الأرض كما حيوها، ومدحهم على منابره بالمدح العظيم الذى قد امتلأت الكتب به، وإذا سألناكم قلتم: هذا كله صحيح قد فعله علىّ وقاله، إلا أن باطنه فيه خلاف ظاهره، وإنما قاله تقرباً إلى أنصاره وأعوانه لأن ذلك كان يعجبهم، ويرون إمامة هؤلاء فقاله خوفاً منهم وتقرباً إليهم ...

فكتب آلافكم مملوءة منهم ومن أفعالهم فى زمن عثمان وقبل أن تصير الخلافة إليه، فأنتم لا تعملون على تحصيل، ولقلة حيلتكم وأنه ليس معكم حجة فى مذهبكم تأتون بالشئ تظنونه حجة لكم فتنقضون به على أنفسكم من حيث لا تشعرون، ففى هذا كفاية.

ومنها أنه قد علم كل من سمع الأخبار أن علياً رضي الله عنه قد أسن بسنن أبى بكر وعمر وعمل بها، وأطاعهما حياتهما، ونفذ وصاياهما بعد موتهما، فأطاعهما حيّين وميتين ألا ترى أنه بايع أبا بكر وعمل له على أموال رسول الله ﷺ، وعم

---

(١) في المخطوط: علي.

له على الأعتاب بالمدينة وضبطها لها، وغزا معه، وأشار عليه، ونفذ وصيته فى عمر، وأطاعه أحسن طاعة، وخلفه على المدينة غير مرة، وصاهره، وأتى فى طاعته ومرضاته ما يطول ذكره، وأدخله فى الشورى فدخل، وجعله رعية لصهيب فقبل، ورده إلى عبد الرحمن فرجع، وغير ذلك مما يطول شرحه، فكيف يقول: لا أسير بسيرة أبى بكر وعمر، أو يصدق عاقل سمع الأخبار مثل هذا الظن؟ ومن ذا الذى يدع المعروف المشهور بالمكاتبات ويرجع عن المعروف بمجهول التأويل.

وإنما قال ذلك، لأن كتاب الله وسنة نبيه لا يحتمل الزيادة ولا النقص البتة.

وسنة الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر الذى قال له عبد الرحمن هو اجتهادهما فى الدين وحياطته وحفظه، والزهد والعفاف الذى هو مشهور عنهما، فلو قال نعم للزمه الدخول فى ذلك من غير زيادة ولا نقص، وقد لا يجد الشخص من نفسه القيام بما يقوم به غيره، ثم الفتيا فى المسائل التى ليس فيها نص كتاب ولا سنة والعمل فيها بالقياس والاجتهاد من الإمام ما كان يمكنه التقليد فيه وترك نفسه من الاجتهاد، ولهذا المعنى أشار، وله أراد، هذا لا يشك فيه من له فطنة ولا دراية، والله أعلم، وأيضاً فليس هاهنا إلا أنه قيل إن عبد الرحمن قال لعلى تقتضى بسنة أبى بكر وعمر.

لأنه جاء أن عمرو بن العاص أتى علياً ليالى الشورى فقال له: إن عبد الرحمن رجل مجتهد، وإنه متى أعطيته العزيمة كان أزهد له فيك، ولكن الجهد والطاقة فإنه أرغب له فيك، ثم لقى عمرو بن العاص عثمان فقال له: إن عبد الرحمن رجل مجتهد، وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة، فأقبل، قال: فلما قال عبد الرحمن لعلى: هل أنت يا على تبايعنى على كتاب الله وسنة نبيّه وفعل أبى بكر وعمر، قال له على: اللهم لا، ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى،

ومن يطيق ذلك. فقال لعثمان هل أنت تبايعنى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر، فقال: نعم، فبايعه، فقال علىّ، خدعه، يعنيأن ابن النابغة خدعه، فهكذا جاء الحديث، فإن كان صحيحاً فاقبلوه، فأنتم أول من يقول لا يجوز أن يقال لأمير المؤمنين بكتاب الله وسنة رسول الله فيقول هذا القول، ولا يجوز أن يخدعه عمرو بن العاص فأنتم لا تقبلون ما قد ذكر، وإذا دعيتم إليه نفرتم عنه، ثم تدّعون ما لم يكن وتجعلونه أصلاًتنصرفون به عن المعروف من اتباع أمير المؤمنين لهؤلاء القوم وتصويبه لهم؟ على أن الذى ثبت عند العلماء أن عبد الرحمن قال لأهل الشورى: إنى قد نظرت وشاورت واستخرت فما وجدت الناس يعدلون بعثمان أحداً.

وأيضاً كان فى الصحابة من يخالف أبا بكر وعمر فى مسائل الاجتهاد. ولا يحتشم ذلك. ولا ينكر أبو بكر وعمر ذلك، وقد خالفهما ابن مسعود، وأبى، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وغيرهم، فتعلم أن ما يتعلق به هؤلاء باطل.

ومن عجيب ما يدعونه أن عمر احتال على علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه حتى أدخله الشورى، وقال: إنه يصلح للخلافة، وأنه قال إذا صار أهل الشورى ثلاثة وثلاثة فاقتلوا الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن، وأن عبد الرحمن كان عدواً لعلى وصرفها عنه إلى عثمان، وأن عمر إنما قال هذا حرصاً على أن ينصرف عن علىّ ويصير إلى عثمان.

وليس معهم فى هذا دلالة ولا برهان، إنما هو البهت والفرية وظنون كاذبة كغيرها من أقاويلهم، وقد تقدم لك الدلالة على أنه لم يكن بين علىّ وأبى بكر وعثمان وعبد الرحمن وتلك الجماعة عداوة، بل كان بينهم من الموالاة والمودة فى الدين والإسلام ما فيه كفاية.

ثم يقال لهم: لو أرادها عمر لعثمان وحده أو لعبد الرحمن أو لأحد يريده لنص عليه كما تقدم النص من أبى بكر أو كما نص هو على صهيب فى الصلاة، فكان الناس يمتثلون ذلك وقد استراح مما ادعيتموه، ولم يكن عليه خوف كما لم يكن على أبى بكر خوف.

والعجب أنكم تقولون: إن أبا بكر وثب بمقام رسول الله ﷺ، فقام فيه فى حياته وفى بيته وبحضرته وبحضرة جميع بنى هاشم والمهاجرين والأنصار، اغتصاباً وقهراً، وتم له ذلك، واغتصبهم بعد موته، وساعده الناس، ونصّ على عمر فقبلوا منه فأنفذوا وصيته، ولم يقبلوا من رسول الله ﷺ ولم ينفذوا وصيته، وقبلوا من عمر فى الشورى وفى كا ما وصى به، ولم يقبلوا من رسول الله ﷺ وصيته ونصه على وصيه عليه رضي الله عنه، وقد بين لهم الفرض فى ذلك، وهو فرض الكافة.

وهاهنا يقولون: إن عمر خاف ولم يكشف ما أراده وأخفاه ودلّسه، كصنيع المغلوب المقهور الخائف المترقب، فأقاويلكم يكذب بعضها بعضاً، وأنتم تنقضون مذاهبكم وأصولكم بأيديكم، وتبعثون خصومكم على النقض عليكم، فلستم ممن يستقر له قول ولا يتقرر له مذهب.

وقد علمت رحمك الله فى الجملة أنه ما كان يجرى فى ذلك الزمان وبحضرة أولئك السابقين ولا يقبل ولا يمتثل إلا الصواب، وإن من أتى بغيره ردّوه وأنكروه، وقد تقدم لك بيان ذلك وبرهانه، فكلما بلغك عنهم مما له ظاهر تنكره، فأما أن لا يكون له أصل البتة، وأما أن يكون إن كان حقاً المراد به والنية فيه والقصد غير الظاهر الذى أنكره الخصم وأوله، فقد علمت حالهم فى تمسكهم بدين رسول الله ﷺ ووصاياه والقيام على نصوصه وعهوده، وأن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً لو أرادوا فى سلطانهم أن يغيروا نصاً لرسول الله ﷺ فى إمرأة أرملة ذمية لما تمكنوا منه، وإن سلطان هؤلاء لم كسلطان معاوية ومن بعده من الملوك.

فاحفظ هذا الأصل وارجع إليه فيما ذكروه عن عمر فى قتل أهل الشورى، وفى ادعائهم على أبى بكر أنه أمر خالد بن الوليد بقتل علىّ بن أبى طالب ثم بدا له فقال لا تفعل، بحضرة المهاجرين والأنصار، وأنه وجّه بالنعمان بن بشير، والمغيرة بن شعبة فقتلا سعد بن عبادة الأنصارى، وأن أبا سفيان وبنى أمية كانوا فى زمن عثمان يظهرون بين الناس بتكذيب النبى، وأنه ما

هاهنا معاد ولا جنة ولا نار، ولهم فى هذا روايات كثيرة عن الصحابة من الرجال والنساء، وذكرها يطول، غير أنك تعلم كذبهم فيها بالدليل الذى تقدم من تمسك المهاجرين والأنصار بدين النبى ﷺ، وأن الغلبة فى زمانهم كانت للمقيمين على دينه وللمعتقدين على تصديقه.

على أن هذا الإنكار والتكذى له والبعث والنشور والحساب والجنة والنار وما أشبه ذلك، ما كان أحد يجسر على إظهاره فى زمن معاوية وأئمة الجور من بنى أمية، ولا فى زمن ملوك بنى العباس وحيث كان الملوك منهم، فإن الملوك من بنى أمية وبنى العباس ما كانوا ملحدة ولا زنادقة ولا أعداء لرسول الله ﷺ بل كانوا على ملة الإسلام ويحبون رسول الله ﷺ ودينه، ويبرؤون من أعدائه وإن شابوا ذلك بحب الدنيا وبإيثار العاجلة وقتل من يأمرهم بالقسط من الناس، وغير ذلك من الكبائر والمناكير التى ارتكبوها.

فقل كان لهم تعظيم القرآن وجهاد العدو وعمارة الثغور، وقد كانوا كلهم يعيبون المسرفين منهم، وقد كانوا فى مجالسهم يتذاكرون أعلام رسول الله ﷺ وآياته، وكانت أظهر وأقهر من أن يعتقدوا خلافها، وقد كانوا يوصون أولادهم بالإسلام.

ولم نقل هذا فيهم من طريق حسن الظن بهم، ولكن إذا اعتقدوا عداوته أو تكذيبه أو عيبه أو عيب شئ من طرائقه وأخلاقه ومذاهبه ﷺ لظهر ذلك ولبدا فى أخلاقهم وطرائقهم وفلتات ألسنتهم وفى سقطات أعمالهم، فبهذا جرت العبرة والعادة سيما وهم ملوك.

ولقد تفاءل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو خليفة وملك جبار، وهو أغنى بنى مروان[1]، فخرج له فى المصحف ما يكرهه فرمى بالمصحف من يده وتسخط ما خرج له، فقام إليه ابن عمه فضرب عنقه فى هذا المقدار، وجعله

---

(١) في المخطوط: «وهو أغني بني مروان»

حجة فى قتله، وأنت تتبين ذلك وأن مثله لايخفى بمثل ابن العميد وزير ركن الدولة، وبأبى جعفر بن بانو السجزى ملك سجستان، وأبى على بن إلياس ملك كرمان، وأمثالهم، فإن هؤلاء وقعت عليهم الباطنية فما زالوا بهم حتى خرجوا من الإسلام، وما أمكنهم المجاهرة والمكاشفة بعداوة رسول الله ﷺ، غير أن ذلك بدا فى فلتات ألسنتهم وسقطات أعمالهم وإن اجتهدوا فى كتمانه.

فأما من بالأحساء ومصر والمغرب فما يظهر منهم من عداوته ﷺ والقصد إلى إطفاء نوره وإماتة شريعته فعظيم، وكان ما ادّعوه على المهاجرين والأنصار أنهم كانوا ممن يبغض أمير المؤمنين لقتل من قتل من المشركين، قالوا فلهذا أخروه ولم يقلدوه الخلافة، قالوا ومع هذا فحسدوا بنى هاشم أن يجتمع فيهم الخلافة والنبوة جميعاً.

وهذا كأمثاله من الافتراء الذى لهم على المهاجرين والأنصار، فقد علمت أحوالهم وكيف أجابوا النبى ﷺ من تلقاء أنفسهم تصديقاً له وإيمانا بما أتاه، وقد كان لهم بمكة وبالمدينة وبأرض الحبشة ما قد تقدم ذكره لك، ويشهد عنك بطلان هذه الدعوى.

وبعد فقد علمت ما كان للمهاجرين والأنصار من الخوض فى باب الإمامة فى حياة النبى ﷺ، وفى مرضه، وبعد موته، وقبل دفنه، وفيما جرى بين أبى سفيان والعباس وبنى هاشم، وفى السقيفة، وعن استخلاف عمر، وفى الشورى، وفى غير ذلك. فما ذكر ذاكر أن هذا يكرهه لأنه قتل الآباء والأبناء ولا بألا يجب أن تكون النبوة والخلافة فى بنى هاشم، وما نطق أحد من خلق الله بحرف من هذا ولا خطر ببالهم.

وقد دخل أمير المؤمنين رضي الله عنه فى الشورى فما أنكر أحد دخوله، ولا نفر أحد، ولا نطق أحد فى ذلك بحرف، بل رضى الناس كلهم بذلك كما رضو بغيره ممن كان فى الشورى، وقد تبادر الناس إليه بعد عثمان، وأكبوا عليه ومدوا يده، فقبضها مرة بعد مرة وحرصوا به وأحبوا خلافته وبيعته، فما نطق أحد بحرف مما يدعيه هؤلاء، وفى كل هذا تكذيب لدعاويهم وفريتهم. وقد

علمنا أنه لم يكن له ﷺ في زمن رسول الله ﷺ ولا في زمن أبي بكر وعمر وعثمان عدو من المهاجرين ولا من الأنصار، حر ولا عبدو ولا ذكر ولا أنثى، لأن ذلك لو كان كذا لظهر، ولكان العلم به كالعلم بغيرة من الأمورت، وكالعلم بمن قعد عنه، وكالعلم بمن عاداه من أهل الشام، وكالعلم بمن رجع من أصحابه كما قد تقدم.

وليس معاداة من عاداه بعد ذلك وبرئ منه دليلا على أنهم قد كانوا أعداءه في زمن رسول الله ﷺ وزمن أبي بكر وعمر وعثمان فقد عادى قوم عثمان رضي الله عنه وخالفوه ونازعوه في آخر أيامه، ولا يدل هذا على أنهم كانوا عدوه في زمن رسول الله ﷺ، ولا فرق بين من ادعى هذا أو ادعى أن الخوارج إنما خالفوه وأكفروه لأنه قتل المشركين، ولأنه كسر الأصنام، ولأنهم كرهوا أن تكون النبوة والخلافة في بني هاشم، وكذا أهل الشام في خلافهم عليه، وهذا كله بهت واختلاط ممن ادعاه، بل الأمور التي لها ومن أجلها خالفه من أهل الصلاة معروفة، كما أن الأمور التي لها ومن أجلها خولف عثمان معروفة.

وبعد فإن المهاجرين والأنصار، إنما كانوا يقدمون من قتل المشركين ويجلونه ويعظمونه من كانت وطأته على المشركين أشد، ولهذا جلّ عندهم من شهد بدراً والمشاهد التي كانت في قتال المشركين وقتلهم، ولم تكن منزلة غيرهم من مسلمة الفتح ومن أسلم بعد الفتح منزلتهم، وكان ممن يجل به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه احتز رأس أبي جهل وكان ما بجل به عمر عندهم أن يوم بدر ما أسر أسيراً وأن كل من وقع بيده من المشركين قتله، وكان فيمن قتله العاص بن هشام وكان خاله، وطلب خاله الحارث ابن هشام فأفلت من يده، ومما كانوا يقدمونه فيه أنه يوم بدر أشار على النبي ﷺ بقتل الأسرى وقال له: سلم كل رجل منهم إلى أقاربه وأهل بيته فليضرب عنقه، فهم رؤوس الشرك، وهم كذبوك وأخرجوك، فسلم عقيلاً إلى أخيه عليّ ليقتله، وفلاناً إلى فلان، ولقتل المشركين تقدم عندهم الزبير، وأبو رجانة، وبنو عفرة،

والبراء بن مالك وأمثالهم. كما قد كان يتقدم عندهم من جمع القرآن وحفظه، بل كان من كانت نكايته فى المشركين أشد تقدماً عندهم ممن جمع القرآن وقرأه. وما دعوى من ادعى هذا إلا كمن ادعى أن المهاجرين والأنصار كانوا يبغضون علياً قراءته القرآن ولصلاته الطويلة ولكثرة ما كان يقول لا إله إلا الله.

وقد كان هناك من المهاجرين والأنصار من قد قتل القتل الكثير غير من ذكرنا، وهم أكثر مما يحصون، وما كان هناك أحد من مسلمة الفتح ممن قتل له أمير المؤمنين قتيلاً إلا أبو سفيان صخر بن حرب، فإن أمير المؤمنين قتل ابنه حنظلة يوم بدر، وأبو سفيان فهو الذى كان أشد الناس حرصاً يوم مات النبى ﷺ أن تكون الخلافة فى بنى عبد مناف، وأن يكون علىّ بن أبى طالب هو الخليفة دون أبى بكر، وقد تقدم لك ذكر ذلك.

فأما المهاجرون والأنصار والسابقون فهم كانوا يتولون قتل أحبابهم وأهليهم، ولقد برز أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى أبيه يوم بدر ليقتله فمنعه النبى ﷺ من ذلك، وقال له: دعه يقتله غيرك، فقتل أبو وعمه وأخوه وابن أخيه وغير واحد من أهل وهو صابر يشكر الله على ذلك وبما وهبه الله لرسوله من النصر، وهذا من أولاد سادات قريش ومن أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة ثم إلى المدينة، وكم مثله فيهم رضى الله عنهم.

فإن قالوا: وما حرص أبى سفيان أن تكون الخلافة فى علىّ؟ قلنا: لأنه من رهطه وبنى عمه فأحب أن تكون الخلافة فى بنى عبد مناف، وكذا أحب العباس وخالد بن سعيد بن العاص، وغير هؤلاء من بنى هاشم، غير أن خالد ابن سعيد لم يكن مسلمة الفتح بل كان ممن أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة وإلى المدينة، وقد تقدم لك ذكر إسلامه، فتعلم بطلان دعاويهم من كل وجه.

فإن قالوا: فإنا لانصدق أن أبا سفيان حرص فى أن تكون الخلافة فى علىّ دون أبى بكر، قلنا: لا فرق بين من ادعى هذا فيه أو فى العباس، وأنه

جرى بينه وبينه فى ذلك قول ولا خوض ولا مراجعة، ولا فرق بين من أنكر هذا أو أنكر السقيفة والشورى، وبمثل ما علمت أنه لم يكن لعلى ولا لعثمان فى المهاجرين عدو ولا مخالف منهم ولا من غيرهم، تعلم أنه لم يكن لأبى بكر ولا بعمر ولا لأولئك السابقين عدو من المهاجرين ولا من الأنصار ولا من بنى هاشم ولا من أحد من الصحابة ولا من السابقين ولا من سائر المسلمين إلا أن حدث من أمر هشام بن الحكم وأمثاله ما حدث، فاعرف ذلك فإنه لو كان يعرف الناس الحال فيه كما عرفه فى غيره مما قد تقدم ذكره من شأن من خالف على عثمان وعلىّ وعاداهما، وما كان من شأن سعد بن عبادة فإن من ادعى هذا كمن ادعى أنه قد كان فى زمن رسول الله ﷺ وزمن أبى بكر رافضة وخوارج لتتأكد لك المعرفة من كل وجه ببطلان دعاوى هؤلاء على القوم الخلاف يوم موت رسول الله ﷺ إلى غير ذلك من دعاويهم. وقد تقدمت لك أدلة العقول قبل أدلة القرآن بمحبة النبى ﷺ لهؤلاء، وأنه قد فرض محبتهم على الأولين والآخرين من أمته.

فأما دعوى عبد الله بن سبأ وأصحابهفلم تكن من دعوى هشام بن الحكم بسبيل، إنما كان فى التفضيل، ثم كان من إنكار أمير المؤمنين ما هو مذكور ثم خرجوا إليه هؤلاء، وما هم من المهاجرين ولا الأنصار ولا من التباعين، ولا يعرفون بشئ من الخبر البتة.

وقد تقدم لك شدة تمسك المهاجرين والأنصار بدين رسول الله ﷺ وحفظ شريعته بعده، ولقد خرجوا إلى حرب مسيلمة وأهل الردج مبادرين للإنكار عليهم من مخالفة رسول الله ﷺ، لا يملكون أنفسهم غضباً على من خالفه أو خرج من دينه حتى يقول الأخ منهم لأخيه والوالد لولده إذا قال أحدهما لصاحبه أقم أنت حتى أخرج أنا، فيقول الآخر: أنا أريد من الشهادة والجهاد مثل ما تريد، فيودعون الأهل والأحباب ويقولون لعلنا لا نرجع إليكم. ولا يلوون على شئ من الدنيا، ولقد التقوا مع مسيلمة فانكشفوا، فقودنا الأعراب الفرار، ما هكذا كنا نقاتل مع النبىّ ﷺ، وقالوا لخالد بن الوليد وهو

أميرهم أخلصنا بعدونا فأخلصهم، وحفروا الحفائر وثبتوا فيها يقاتلون إلى أن ظفروا، وقتل مسيلمة، وقتل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبى حذيفة، وثابن بن قيس وزيد بن الخطاب، وغيرهم من المهاجرين والأنصار نحو أربعمائة، فيهم من حفاظ القرآن سبعين رجلاً، وفيهم ممن شهد مع له النبى ﷺ بالجنة وأنه يقتل شهيداً، وهذا من آياته وكلهم قتل فى طاعة أبى بكر.

ولأجل هذه القضية وهذا الزحف اجتمع الصحابة إلى أبى بكر وقالوا له: اجمع القرآن فى مصحف واحد لينالله كل واحد، فقد قتل فى هذا الزحف خلق كثير ممن حفظ القرآن، ولا نأمن زحفاً مثله يقتل فيه آخرون ممن قد جمع القرآن، فيذهب منه أو يضيع، وهؤلاء ما يملكون أنفسهم، ولا يصبرون عن الجهاد ولا عن الموت في طاعة الله. ويُدَّعى أنهم كانوا يعادون من قتل المشركين، أو أنهم تغيروا بعد نبيهم.

قد انطلق أبو الجهم بن حذيفة العدوى يوم اليرموك يطلب ابن عم له ومعه شئ فيه ماء، فإن كان به رمق سقاه ومسح بالماء على وجهه، فأتاه قال له: أسقيك؟ فما كان به طرف يتكلم، فأشار أى نعم، فإذا صوت رجل يقول: أوّه، فأشار ابن عمه إليه أن انطلق إليه وأسقه، فأتاه فإذا هو هشام بن العاص بن وائل السهمى، فقال له: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: أوّه وما بهشام طرف يتكلم فأشار هشام أن انطلق إليه، فجاءه فإذا هو قد مات.

فرجع إلى هشام فإذا هو قد مات، ثم أتى ابن عمه فإذا هو قد مات.

وكم مثل هذا لو أخذت أذكره لطال ذلك، وأنت تجدها فى أماكنها. وهؤلاء هم الذين كانوا أعداء رسول الله ﷺ فى أول أمره حين دعا إلى الله عز وجل وأولاد أعدائه.

وانظر إلى مسلمة الفتح. فهذا الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبى جهل، وعباس بن أبى ربيعة، فإنهم هجروا الأوطان، وفارقوا الأهلين، ورفضوا الأموال، وأقاموا على الجهاد، حتى أسعدهم الله بالشهادة، وأوجب لهم الكرامة.

ولقد استلحموا، وجلت عنهم المعركة وقد أصابهم أشد العطش من حر السلاح، فمد الحارث يده يستقى، ومد عكرمه يده، فقال الحارث: اسق عكرمة، فمد عياش يده فقال عكرمة: اسق عياشاً فلم يصل إلى أحد منهم حتى مات الآخر مما كان بهم من الطعن والضرب وحر الحديد، فكيف يتوهم على هؤلاء الحقد والضغن، وهل شئ يؤمن من ذلك إلا وقد كان معهم؟ وهؤلاء قد قتل رسول الله ﷺ أباهم وأبناءهم وإخوانهم وآذوه وحاربوه قبل إسلامهم، فلما أسلموا أخلصوا، وكان هؤلاء وأمثالهم أشد الناس على أهل الردة وعلى جميع أعدائه ﷺ.

ومثلهم سهيل بن عمرو، والمهاجر بن أبى أمية، وعتاب بن أسيد، وجبير ابن مطعم، فهؤلاء من ردّ الردة، وقتل مسيلمة، وأسر طليحة، وقتل أهل ردة عمان، ورجال أسد وغطفان، وما قنعوا بقتلهم حتى أحرقوهم بالنار غضباً لرسول الله وحمية لدينه، وهم كانوا أشد الناس عليه، ولكن لما أسلموا زال ذلك كله، وأخلصوا أشد الإخلاص، وهؤلاء وأمثالهم قد كانوا عرفوا الحق فمنعهم من الدخول فى الإسلام الحمية وحب الرئاسة. وقد كانوا علموا أن رسول الله ﷺ لا يقدمهم على الفقراء والموالى الذين سقوا إلى الإسلام كما تقدم ذكر ذلك لك، فلما قهرهم الحق وجاء الفتح أسلموا، وكانت نفوسهم أبية يأنفون من النفاق والفسق والغيبة، فأسلموا وهذه أخلاقهم فأخلصوا ونصحوا.

وقد تقدم لك ما قاله الحارث بن هشام حين خرج من مكة مهاجراً فى سبيل الله، ولهذا المعنى قال أبو جهل لابن مسعود حين أكب عليه ليجهز عليه: إلست رويعياً بتهامة، لقد ركبت مركباً صعباً. وقد تقدم لك للأسباب نزول نزول قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١).

ولقد ذكر سهيل بن عمرو، أن الحمية والأنفة وحب الرئاسة مما متعهم

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٥٢.

من الدخول فى الإسلام، وكان يقول: وأبو سفيان يعرف من هذا الحق ما أعرف، ولكن حسد بنى عبد المطلب قد ختم على قلبه، وقد كان أبو سفيان يتحدث بمثل ذلك فيقول: خرجت وأمية بن أبى الصلت الثقفى، وطليق بن سفيان بن أمية تجاراً إلى الشام. وكان أمية بن الصلت يأتى النصارى ويسمع من علمائهم، فقال لى: هل لك فى عالم من علماء النصارى إلى يتناهى علم الكتب تسأله عما بدا لك؟ قلت: لا أرب لى به، والله لئن حدثنى ما أحب لا أثق به، ولئن حدثنى ما أكره لأوجلن منه، فأقام عندهم أمية ثم رجع كئيباً حزيناً، فلما سرنا قال لى: هى عن عتبة بن ربيعة يجتنب المحارم والمظالم، قلت إى والله، قال ويصل الرحم ويأمر بصلتها. قلن نعم، قال ومحوج، قلت نعم، قال فهل تعلم قرشياً أشرف منه، قلت لا والله ما أعلم، قال: كم أتى له قلت: سبعون هو لها هو ابنها، قلت: وأنت قائل شيئاً فقله، قال: والله لا تذكر حديثى حتى منه ما هو آت، قلت لا أذكره، قال: إنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء، فأخبرنى عن نبى من العرب منتظر، وأنه من أهل بيت يحجه العرب، قال: قلت فينا بيت تحجه العرب، قال: لا، هو من إخوانكم وجيرانكم قريش، قال: فأصابنى والله شئ ما أصابنى مثله قط، فكنت أرجو أن أكون أنا تهو، قلت فإذا كان ما كان فصفه لى، قال: شاب، حين دخل فى الكهولة بدأ أمره، إنه يجتنب المحارم والمظالم، ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهو محوج، ليس بذارع الشرف، كريم الطرفين فى العشيرة، أكثر جنده من الملائكة. قال: قلت: ما آية ذلك؟ قال: قد رجف الشام منذ هلك عيسى ثمانين رجفة كلها فيه مصيبة عامة وبقيت رجفة عامة فيها مصيبة، نخرج على أثرها، قال أبو سفيان: قلت: إن هذا والله هو الباطل، لئن بعث الله رسولاً إلا شريفاً مسناً، قال: ثم رحلنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان، أردكنا راكب من خلفنا فسألناه فأذا هو يقول: أصابت الشام رجفة دمرت أهلها وأصابتهم مصيبة عظيمة، فقال أمية: كيف ترى يا أبا سفيان؟ قلت: والله ما أظن صاحبك إلا صادقاً.

وقدمنا مكة فتفضيت مما كان معى، ثم انطلقت حتى جئت أرض الحبشة تاجراً فكمشت بها خمسة أشهر ثم أقبلت حتى قدمت مكة، فبينا أنا فى منزى جاءنى الناس يسلمون على حتى جاءنى آخرهم محمد بن عبد الله وعندى هند جالسة تلاعب صبية لها، فسلم علىّ ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقدمى ثم انطلق، فقلت: والله إن الفتى للعجب، ما جاءنى أحد من قريش له معى بضاعة إلا سألنى عنها، وما بلغت، والله إنه له معى لبضاعة ما هو بأغناهم عنها ثم ما سألنى عنها، فقالت هند أوما علمت شأنه؟ قلت: وفزعت: ما شأنه؟ قالت: والله ليزعم أنه رسول الله.

فذكرت قول النصارى، ووجمت، حتى قالت لى: مالك؟ فانتهيت، فقلت: إن هذا والله لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت بلى والله إنه ليقول، وإن له لصحابة على أمره معه، قال: قلت: هذا الباطل فخرجت؛ فبينما أطوف إذ لقيته فقلت: إن بضاعتك قد بلغت وكان وكان فيها خير، فأرسل إليها فخذها، ولست آخذ فيها ما آخذ من قومك، قال: فإنى غير آخذها حتى تأخذ منى ما تأخذه من قومى، قال: قلت: ما أنا بفاعل، قال: فوالله لا آخدها، فأرسلت إليها وأخذت منها ما كنت آخذه من غيره، وبعثت إليه ببضاعته.

وما ألبث أن خرجت تاجراً إلى اليمن، قدمت الطائف، فنزلت على أمية فتغديت معه، ثم قلت: يا أبا عثمان، هل تذكر حديث النصرانى؟ قال: أذكره، قلت فقد كان قال: ومن هو، قلت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال فالله يعلم أنه تصبب عرقاً، ثم قال: والله يا أبا سفيان لعله قال، ومضيت إلى اليمن فلم ألث أن جاءنى هناك استهلاله، فأقبلت حتى قدمت الطائف، فنزلت على أمية، قلت: قد كان من أمر هذا الرجل ما قد بلغك وسمعت، قال: قد كان، قلت: فأين أنت؟ قال: والله ما كنت لأومن لرسول ليس من ثقيف، قال: وأقبلت إلى مكة فوجدته هو وأصحابه

يضربون ويقهرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟ ودخلنى ما دخل الناس من التعاسة.

ولهذا نظائر من حديثهم، وقد كان معاوية يتحدث به فى زمن ملكه وسلطانه، ويتحدث به عن مروان بن الحكم، ويتحارون الأسباب التى أبطأت بهم عن الهجرة من الأنفة والرجال الذين كانوا يصدون عن ذلك من بنى أمية، مثل عقبة بن أبى معيط، ومثل الحكم بن أبى العاص، ومثل أبى سفيان من بنى أمية، ومن كان كذلك من بنى مخزوم، وما كان يلحق من أسلم منهم من الأذى من هؤلاء.

كما كان يتحدث بذلك سهيل بن عمرو، وعمرو بن العاص، وغيرهم، ويذكر بعضهم بعضاً فى حياة النبى ﷺ وبعد وفاته وبعد مضى الخلفاء الراشدين، فتعلم بصائر مسلمة الفتح والذين أبطؤوا عن رسول الله ﷺ، وإذا تأملت وجدت لبنى أمية، وبنى مخزوم من المهاجرين منهم، ومن مسلمة الفتح آثاراً كثيرة عظيمة فى نصرة الإسلام فى حياة رسول الله ﷺ، والذى لهم بعد وفاته أعظم، ولم يكن الخلاف الذى كان بين أولئك القوم وبين أمير المؤمنين رضي الله عنه لشك فى النبوة ولا لضعف بصائرهم فيها، لأن ذلك لو كان لبان كما قدمنا الدلالة على ذلك. لأنه لا يمكن أن تقول إن عبد الله ابن وهب الراسى وأصحابه من الخوارج إنما خالفوا أمير المؤمنين وأكفروه وقاتلوه لبغضهم لرسول الله ﷺ ولا لشكهم فى نبوته، وقد كانت لهم عبادة وقراءة القرآن وصوم وأمور كثيرة حسنة، جميلة، يطول تفصيلها، غير أنهم أحبطوا ذلك كله. بمخالفتهم لأمير المؤمنين.

وكذلك معاوية، قد استعمله رسول الله ﷺ، واستعمله غير واحد من الخلفاء بعده على ثغور الروم، فضبطها وفتح الفتوح وغزا معه فى تلك المغازى خلق كثير من المهاجرين والأنصار والبدريين وكانت فيه عفة عن أموالهم، وكان عمر رضي الله عنه كثير التصفح لأحوال العمال والاستبدال بهم، فما وجد عليه ولا

استبدل به، فلما مضى عثمان فكان من أمر معاوية ما كان من الخلاف على أمير المؤمنين رضي الله عنه انصرف عنه البدريون، وصاروا فى حملة أمير المؤمنين، ولم يبق معه منهم أحا من البدريين خاصة، وأقام على خلاف أمير المؤمنين فأحبط عمله وضل ضلالاً بعيداً. فليس أحد من هؤلاء خالف أمير المؤمنين لشكه فى النبوة، ومع هذا فما سار أمير المؤمنين فى قتال هؤلاء سيرة من شك فى النبوة، ولا أخرجهم من أن يكونوا من أهل الصلاة وأهل القبلة، وما زاد على تضليلهم.

وقد دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بأمرة المؤمنين، وأقام على حرب بنى أمية تسع سنين وتفانوا فى القتل، وقتل بنو أمية آل الزبير وأفنوهم وصلبوهم ولم يكن ذلك لشك من أحد الفريقين، فى النبوة والعجب أن عبد الله بن وهب الراسى وأصحابه أكفروا أمير المؤمنين فما أكفرهم ولا زاد على تضليلهم، وكذا سار القراء والتابعون الذين قاموا مع ابن الأشعث وأنكروا شأن عبد الملك والحجاج، فإنما أنكروا فسقهم وجورهم لا أن أحد الفريقين شك فى النبوة، ومثل هذا كثير فاعرفه، فإن قوماً قد دخلوا بين الناس وألقوا إليهم مثل هذا لشدة عداوتهم للنبى ﷺ، حتى قالوا فى العباس ابن عبد المطلب أنه كان عدواً لرسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ كان يمقته، وكان إذا سلم عليه لا يرد عليه ويقول له: لعنك الله ولعن أبا لهب، وأنه لم يكن من بنى هاشم ولا ولد عبد المطلب، وأنه لتلك العداوة التى كانت فى نفسه صارت فى ولده، فلهذا قتل أبو جعفر المنصور من ولد أبى طالب من قتل، وكذا غيره من بنى العباس.

وأهل المعرفة يعلمون أن رسول الله ﷺ كان يعظمه ويجله ويقول فيه: ما كان لى أن أرفع صوتى بحضرة عمى ويجعله بما لا يتهيأ له إحصاء لطوله فى هذا الموضع، وقد كان أمير المؤمنين يجلّه ويعظمه ويقدمه ولا يقطع أمراً دونه، وكان ولده هم خاصة أمير المؤمنين وبطانته، وخلفاء على رعيته كما هو معلوم.

وكذا كان ولده عليه السلام مع ولد العباس بعده، وكلمتهم واحدة، إلى أو وقع الخلاف بين عبد الله بن حسن بن حسن وبين أبى جعفر، ورامـوا أخذ الأمر منه وانتشبت العداوة منذ ذاك بينهم، لا شك فى النبوة ولا لعداوة قديمة كانت بين رسول الله ﷺ وبين أبيهم، ولا بين على والعباس، وها أنت تجد بنى العباس يثب بعضهم ببعض، ويقتل بعضهم بعضاً، يقتل الأخ أخاه والعم ابن أخيه، أتراها لعداوة فى الأصلاً أو فى الآباء والأجداد، وتجد من ولد أبى طالب مثل ذلك، ألا ترى إلى من بطبرستان وبلد الديلم منهم كيف يثب بعضهم بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، وكذا من منهم بصعدة من أرض اليمن، وكذا من منهم بالعراق، يقتتلون فى الرئاسة لا لعداوة كانت فى الآباء والأجداد، وإنما أكثرنا من ذكر هذا وشبهه وما تعلق بالإمامة لأن أكثر الملحدة من هذا الباب يدخلون فى خديعة المسلمين وإفسادهم فى الدين وقد تقدم لك ذكر أوائلهم.

وفى هذا الزمان منهم مثل أبى جبلة إبراهيم بن غسان، ومثل جابر المتوفى، وأبى القوارس الحسن بن محمد الميمدى وأبى الحسين أحمد بن محمد بن الكميت، وأبى محمد الطبرى، وأبى الحسن الحلبى، وأبى يتيم الرلباى، وأبى القاسم النجارى، وأبى الوفا الديلمى، وابن أبى الديس، وخزيمة، وأبى عبد الله محمد بن النعمان، فؤلاء بمصر وبالرملة وبصور، وبعكا وبعسقلان وبدمشق وببغداد وبجبل البسماق. وكل هؤلاء بهذه النواخى يدّعون التشيع ومحبة رسول الله ﷺ وأهل بيته، فيبكون على فاطمة وعلى ابنها المحسن الذى زعموا أن عمر قتله، ويذكرون لهم تبديل القرآن والفرائض، ويذكرون ما قدت تقدم ذكره من أن خلافهم له وقتلهم إنما هو لعداوته ﷺ وللشك فى نبوته، ويقيمون المنشدين والمناحات فى ذلك، ويأخذون على الناس العهود، ويحلفونهم الأيمان الغليظة، فإذا حصلوا كذلك قالوا لهم: إياكم ومجالسة الفقهاء، واستماع الحديث من أصحاب الحديث، واستماع القرآن من العامة، وعليكم برواية الخاصة،، فقد قال جعفر بن محمد كتابة: حديث

العامة يعمى القلب، وإياكم وفقه أبى حنيفة ومالك والثورى والحسن البصرى وأمثالهم فإنهم كفرة وأعداء أهل البيت، والرشد كله فى خلافهم. وإذا عمى على أحدكم الصواب فلينظر ما عليه الفقهاء فيعمل بخلافه فإنه يصيب الحق.

ثم يأخذونهم فى مجلس يسمى مجلس التغذية بأن لكل شئ باطناً علمه عند مولاكم العزيز بالله، يظهره لكم إذا ترقيتم الدرجات فى طاعته، ثم يأخذونهم بأن يقولوا لهم: لم صلاة الصبح يجهر بها والظهر لا يجهر فيها، ولم خوصة سعفة النخلة طويلة، وورقة الكرم مستديرة، وورقة الموز طويلة عريضة، فإذا سألوهم الجواب قالوا لهم: أنتم من المجربين ومن المبتدئين، والمبتدئ كالطفل يغذى باللبن ثم بعد اللبن بما هو أقوى منه، ويقولون لهم: أليس قد قال الله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾[1] ونحن وأنتم لا نأكل لحم الذبيحة حتى تموت ولا نأكل السمك حتى يموت، وإنما معنى هذا أن النبى ﷺ قد مات وحرام أن تقام شريعته[2]، وينبغى أن يمتثل أمر العزيز مولانا الذى هو حجة الله، وهذا علم الخاصة، ولكن الفقهاء الحمير وأهل الظاهر لا يعرفون هذا، لذهابهم على إمامهم ولىّ الله وحجة الله على خلقه.

ويقولون لطائفة أخرى: ما عليكم صلاة ما دام فى الدنيا لكم عدو يمنعكم من التمكن فى الأرض، فإن الله يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3] ويقولون لآخرين الصلاة شخص، والصلاة عذاب على أهل الظاهر ويرقون الناس بحسب طبقاتهم واحتمالهم للشك والحيرة، وهذه مجالس الترقية كما مذكور لهم ومرسوم فى البلاغ السابع والناموس الأعظم، ثم يرقوم من يثقون به، بأنه

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣.

(٢) في المخطوط: «حرام» وقد أضفنا الواو قبلها

(٣) سورة الحج آية ٤١.

لا يحرم عليه أمه ولا بنته ولا أخته، ولا خمر ولا خنزير ولا زنا ولا لواط ولا ربا، ولا شئ البتة، وأنه لا يحل لك أن تمنع أخاك ومن هو مثلك فى البلاغ السابع والعلم الباطن من زوجتك فإنها تحل له كما تحل لك، والاشتراك فى الزوجات كالاشتراك فى الطعام، والكريم مهو الذى تنكح زوجته بحضرته كما يؤكل طعامه بحضرته، وقد قال أفلاطن الغيرة شح فى الطبيعة.

فيقال لهؤلاء الدعاة: قد ادعيتم على رسول الله ﷺ وعلى إخوانه من الأنبياء أنهم كذابون محتالون طلاب دنيا ورئاسة، ونحن فقد ذكرنا لكم مجيئه وسيرته وطرفاً من آياته وأعلامه، وأن أهل الأرض بأسرهم قد خاصموه وطلبوا عثرة تكون له فما وجدوا، ولو كان كما ادعيتم لكانت سبيله سبيل أئمتكم، فقد علمتم حال سعيد، الذى زعم أن ابن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القراح بن ديصان بن سعيد الغضبان الحرمى، وأبو القاسم بن الأبيض العلوى، وغيره من أهل هذه الدعوة ويزعمون[1] أن سعيداً هذا ليس هو ابن الحسين وإنما هو ابن إمرأة الحسين هذا، وأبوه يهودي حداد من أهل سلمية من أرض الشام، وأن الحسين لما تزوج بأمه حظيت عنده، فأحب ولدها سعيداً هذا، وإنما رغب فيها لفرط جمالها وكمالها.

وكان سعيد ابنها هذا يشبهها فى الجمال، وكان له ذكاء وفطنة، فتولى الحسين زوج أمه تربيته وتعليمه وتخرجه على ما يحب ويختار، فقبل منه وأخذ عنه فعرفه حال هذه الدعوة ورجالها وأسرارها ودعاتها، وأين هم وكم هم وكيف كان أولها وابتداؤها، وزوجة الحسين زوج أمه بنت أبى الشلعلع، وأبو الشلعلع هذا من ولد عبد الله بن ميمون القداح، وكان ذلك، فولدت لسعيد ابن فسماه عبد الرحمن.

---

(١) في المخطوط: يزعمون.

ثم صار سعيد إلى سجلماسه من أرض المغرب، وتسمى بعبيد الله[1] وأكنى بأبى محمد، وادعى أنه من نواحى الأهواز ومن بيناتها ورؤسائها وأنه هرب هو وأبوه من جزر عمرو بن الليث، وأن ضياعهم بكور الأهواز كثيرة، ولهم بها، وأن المواد تأتيه منها، وكان يقول لمن يثق به ويأنس به فى انه عبد الرحمن أنه يتيم فى حجره، وأنه وصىّ أبيه، وأن أباه من أهل البيت، وكان يحتال على اليسع ابن المدرار أمير سجلماسة وعلى أهل بيته بالدعاوى.

فلما تمكن وأمكنته الحيلة بأبى عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا الكوفى الداعية غدر ببنى المدرار، وقد كانوا أجاروه وأحسنوا إليه، فغدر بهم ذلك الغزر الفاحس، فقال له أبوعبد الله: قد كانت كتبك ورسائلك تأتينى بأنك مع بنى المدرار بكل خير وأنك ما نزلت بأكرم منهم، وقد قتلتهم فما أبقيت منهم رجلاً، حتى قتلت صبياً من صبيانهم واستبحت أموالهم ونساءهم فقال له: هو ما كتبت إليك، ولكن اليسع ما العقنى لعقة عسل إلا ومعها لعقة صبر، وأما هذا الصبى، فإنه جاءنى برسالة من عمه، أحمد بن المدرار جافية، فكانت هذه أول فضائحة ولها تفصيل طويل.

وسمى ابنه عبد الرحمن الحسن، ثم لما تمكن وملك قال هو ابنى، وسماه محمداً، وكناه بأبى القاسم.

ولما أراد الرحيل من سجلماسة إلى القيروان وأفريقية من أرض المغر دخل المغاربة أصحاب أى عبد الله لإخراج رجله، فوجدوا ملابس الحرير والديباج وأوانى الذهب والفضة وخصيان رومة وآثار الأنبذة، فأنكروا ذلك فى أنفسهم مع بلادة البربر، سألوا أبا عبد الله الداعية عن ذلك، وإنما أنكروا ذلك لأن عبد الله هذا كان مقيما سنين كثيرة فى كتامة يدعوهم إلى المهدى الذى هو حجة الله ويزعم أنه صاحبه، وكان أبو عبد الله يتقشف ويلبس الخشن ويأكل الخشب، ويعدهم عن المهدى بمثل ذلك، فلهذا أنكروا وسألوا،

---

(١) في المخطوط: تسمي.

فقال لهم أبو عبد الله هذه الآثار لأصحابه وأتباعه وكان معه أتباع كثير.

ثم أن أبا عبيد الله بعد قتل أبى موسى هرون بن يونس شيخ المشايخ، وأبى عبد الله الحسن بن أحمد بن زكريا الداعية، وأخيه أبى العاس محمد بن أحمد بن زكريا، وأبى زاكى تمام بن معارك وكان من كبار الشيعة، بعد قتله لهؤلاء وتمكنه بالمغرب، استصفى أهل الثروة وأخذ أموالهم كلها، وأرسل ابنه وجعله ولى العهد بعده والخليفة، وسماه القائم، فكان ينزل فى العساكر على بلد بلد فيستصفى أمواله. ويهدم حصونه وقلاعه، ويأخذ ما فيه من الأ«لحة والأمتعة، ويقتل الرؤساء والوجوه والفقهاء وأصحاب الحديث، ويتخذ جهالهم ويجعل لهم الأحوال والأموال، ويسلطهم على أهل الفضل، ويضع المكوس والضرائب، ويتوصل إلى إزالة النعم، والتضيق على المسلمين بكل ما يقدر عليه وما يطول شرحه.

وكان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم. وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين. وكان الشيعة ببغداد، مثل بنى بسطام، وبنى أبى البغل وآل الفرات، يرجفون أن المهدى قد ظهر بالمغرب، وهو هنا يحيى الموتى ويقف على المقبرة فينادى الموتى فيقومون من قبورهم. وكان أبو الحسن محمد بن أحمد النسفى صاحبهم بخراسان، فذكر لنصر بن أحمد مثل ذلك، وأبو حتم أحمد بن حمدان يذكر مثل ذلك بالرى لأسفار بن شيروية. وكثرت الروايات عن رسول الله ﷺ وأهل بيته فى أن المهدى يظهر بالمغرب ويملك الأرض كلها من أولها إلى آخرها، وينفذ أمره فيها وأحكامه على أهلها فى سنة ثلثمائة للهجرة، وهو معنى ما جاء فى الحديث من طلوع الشمس من مغربها، وكم كان لهم من الخطب المنسوبة إلى أمير المؤمنين بأن ولده المهدى يظهر من المغرب ويملك الأرض فى سنة ثلثمائة للهجرة، وأن هذا موجود فى الملاحم.

وصدرت رسل بنى بسطام وغيرهم من الشيعة إلى المغرب: بادر فإن الأرض كلها لك والخليفة بغداد يومئذ جعفر المقتدر بالله، وهو صبى ونحن

أجلسناه، وله أثنتا عشر سنة، وأولياؤه ومن حوله شيعته، من آل الفرات وآل بسطام وآل القاسم بن عبد الله وآل أبى البغل والكرخيين وآل نوبخت، فسير ابنه فى سنة ثلثمائة فى عساكر عظيمة من البر والبحر، وعنده أنه يظهر على الأرض كلها بسبب ما تقدم ذكره، ولأجل من بخراسان والبحرين من أهل هذه الدعوة.

فقدم مصر نزل عليها فى سنة أثنين وثلثمائة، وإذا أبو سعيد الجنابى قد قتل بالبحرين وقد ظهرت الفضيحة بها، ولقيه بظاهر مصر القاسم بن سيما الفرغانى فى سبعة آلاف فرد تلك العساكر كلها ورجع ابن عبيد الله إلى أبيه بالمغرب بالخيبة والهزيمة، وذهبت تلك الأموال، وجاءت جواسيسه إلى الشيعة المقدم ذكرهم بالعراق تعنفهم فما كان من إطماعهم له وما كان من القاسم بن سيما الفرغانى، فاعذروا إليه وقالوا له: ارجع، فرد ابنه فى سنة سبع وثلثمائة بأكثر من تلك الجيوش فى البر والبحر، فنزل على مصر سنين متوالية، ونزل على عسكره فى الماء ثمل الخادم من طرسوس فى ثمانية عشر مركباً فهزمهم، فرجع بالخيبة والهزيمة. وكان مع هذه الحال يشتد على أهل القيروا وما يملكه من أرض المغرب بالجور وقتل الرجال واستصفاء الأموال وقصد الفقهاء والعلماء، وقد كان بث دعاته فيها يدعون الناس إليه وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود، ويلقون الناس من أمره بحسب عقولهم واحتمال كل طبقة منهم، فمنهم من يلقون إليهم أنه المهدى ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقى أنه رسول الله وحجة الله، ومنهم من يلقى أنه الله الخالق الرزاق، فكان إذا ضج الناس من هذا وظهر منهم الإنكار يأخذ الدعاة، فمرة يحبس بعضهم، ومرة يقتلهم، ويقول: ما أمرت بهذا، ويقول الدعاة هو أمرنا وبأمره فعلنا، وله أن يمتحننا. وكان من جوره وكذبه وفضائحه ما يطول. فإنه مكث فى ملكه نيفاً وعشرين سنة.

ولما هلك، قام ابنه الذى قد تقدم ذكره مقامه، وتسمى بالقائم أمير المؤمنين، وزاد شره على شر أبيه أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء،

فكان ينادى فى أسواق أفريقية والمهدية وهى مدينة كان ينأها أبوه وحصنها، فكان يقال: العنوا عائشة وبعلها، العنوا الغار ومن حوى، وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع، واستولى من بلدان المغرب على أكثر ما استولى عليه أبوه، فإن بلدان المغرب واسعة عظيمة وهى تشبه بخراسان فى السعة وكثرة الرجال وهى فى يد عدة من الملوك، وكانوا[1] يقولون فى هذا أنه هو الذى يظهر ويملك الأرض، وأنه هو الحجة والمهدى، وكتب إلى أبى طاهر القرمطى المقيم بالبحرين البلاغ السابع والناموس الأعظم، وهو سر الدعوة وحقيقتها، وبعثه على قتل المسلمين، وإحراق المساجد والمصاحف، وكان قد كتب هذا فى الكتاب فى حياة أبيه، وكان أبوه فى أول أمره يقول: إن هذا يتيم فى حجرى وهو علوى من ولد اسماعيل بن جعفر بن محمد، وكان أول أمره يظن أنه لا يتم له أمر الملك فلما تمكن وفعل هذا قال: هذا ابنى وهو علوى. وشرح ظلم هذا القائم وقسوته وفجوره يطول، وهو أكثر مما أتى أبوه.

وكان لهذا الذى يسمى بأمير المؤمنين القائم بن المهدى ابن يقال له القاسم، وكان قد تأدب وقال الشعر، وكان فارساً، فاستخلفه ونص عليه، وقال: هذا القائم الإمام الذى أمر باستخلافه عليكم، وهو القائم بعدى، فاسمعوا له وأطيعوا. فمات هذا القاسم فى حياة أبيه، فكان يقال بالقيروان ما أكثر كذب هؤلاء المشارقة.

ولكثرة ما جاء من جور هذا وقتله واستصفائه الأموال، اجتمع قوم من أهل الجبل بالمغرب على رجل من الأباضية يقال له أبو يزيد مخلد بن كيداد فبايعوه، وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً لا يمكنه لضعفة أن يستمسك على فرس. فكان يركب حمارا، وكان له وزير يستشيره أعمى، فأنفذ رليه هذاالذى تسمى بالقائم بن المهدى بعسكر فكسره وردّه، وتسامع به الناس، وأنه ينكر المنكر، فاجتمعوا إليه وأتوه، وسار من الجبل إلى الأمصار، ولقيته العساكر فكسرها

---

(١) في المخطوط: كان.

كلها، ودخل أفريقية، وأزال الطلم والمكوس، وملك كل ما كان فى أيدى هؤلاء القرامطة من أرض المغبر إلا المهدية، فإنه حاصرهم فيها، والاسقلية وطاربلس من أرض المغرب. ومات هذا المتسمى بالقائم بن المعهدى فى الحصار وعرض له وسواس وزال عقله مما نزل به من الذل، وقتل الرجال، وزوال الملك، وجوع من تبقى معه بالمهدية بالحصار.

وقام بعده ابنه أبو طاهر إسماعيل، وضمن للناس تغيير سيرة أبيه وجده، وأنه لا يتعرض لدياناتهم، وحلف على ذلك، وأكد وأشهد واستعان بأبى الحين بن عمار، فأشار عليه بهذه الأمور. وقد كان أبو يزيد مخلد بن كيداد ملك خمس سنين، وكثرت عساكره، فانتشر عليه أمره، وأظهر أصحابه دين الأباضية، فكرهه الناس وخرج أبو طاهر إسامعيل وحاربه وكبسه فى صحراء وأخذه وسلمه وصلبه، ووفى للناس بما وعد، وعدل وأنصف وأخذ الدعاة الذين كانوا لهم فحلق لحاهم، ونفاهم، وقال لأهل القيروان: من سمعتموه ينال من أصحاب رسول الله ﷺ فاقتلوه فإنى معكم ومن ورائكم. وأطلق المحدثين فى الحديث، والناس فى إقامة التراويح، وأطلق الناس فى غزو الروم، وأعز المسلمين والثغور على يدى أبى القاسم ابن أبى الحسن بن عمار، والثغور فى يد أولاده إلى هذه الغاية، وهم قوم مسلمون فيهم خير كثير، والشرك مقموع بهم هناك. ولهم سيرة حسنة طويله مذكورة.

واشتغل إسماعيل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبى يزيد مخلد بن كيداد، وتقدم إسماعيل إلى الفقهاء بأن يتركوا له حلقة فى الجامع خاصة له يقعد فيها أصحابه تكون حلقة لجعفر بن محمد، فجلس فيها جماعة لا يختلطون بالفقهاء، وكانوا يتذاكرون فى حلقهم ذكر أفلاطن وبطليموس وأرسطو، فقال الناس: هؤلاء ملحدة وزنادقة وأعداء الأنبياء فكيف تكون هذه الحلقة حلقة جعفر بن محمد، وإذا نية إسماعيل غير صافية فى الإسلام، وإنما أظهر الرجوع عن سيرة أبيه وجده خوفاً مما جرى.

وكان لإسماعيل أخ يقال له يوسف، وكان ينظر فى الكتب ويسأل العلماء،

وكان فيه فضل، وكان يقول: إنا أولاد النبى ولا نعظم إلا أعداء الأنبياء من الفلاسفة، ودعاتنا كل سفلة كذاب، ركاب لكل فاحشة، ولو كنا من أولاد الأنبياء ونحب الأنبياء ما كانت هذه حالنا، ثم يسمى الدعاة واحداً واحداً ويذكرهم بما فيهم، فقد كان فيهم أبو الأسود وكان ينكح بنته، وقصة يوسف هذا معروفة ومات بأحدابيه فى مصيرة إلى مصر. وفيما أظن أن ولده بمصر إلى هذه الغاية. ثم إن إسماعيل استخلف ابنه أبا تميم معداً وجعله ولى عهده، وسماه بالمعز لدين الله ومات إسماعيل فى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة، وقام أبو تميم بعده، وسار سيرته، ورفق بالناس وتمكن، وصفت له المغرب فما تحرك عليه أحد، واتسع ملكه وجبى الأموال، ثم تغير وقرب الدعاة وقالوا: هذا هو المهدى، وهو الذى يملك. وهو الشمس التى تطلع من غربها. واتفق أن الروم أخذت ثغور المسلمين من طرسوس وأذنه والمصيصة وعين زربة وغيرها فى أيامه، واحتوت عليها، فاشتد طمعه فى الإسلام، وسره المصائب اللتى نزلت بالمسلمين، وبلغه أنه قد كتب على المساجد ببغداد لعن الله خلفاء رسول الله ﷺ، فطار سروراً بهذا وطغى وتجبر، وهمّ يغزو مصر لأن فيها شيعة كثرا، وإنما سلطانها خصى أسود مولى لموالى بنى العباس، وقال: عقله عقل إمرأة، والذين معه من الجند أسوأ حالاً منه، قد اعتادوا الترفه والأكل والشرب، وليست لهم بالحرب عادة، ومن بها من الشيعة يكاتبنا ويهون أمر هذا الخصى، والثغور فق ذهبت، وما بقى للإسلام سلطان ولا ملك، والديلم بالعراق والجبال شيعة لنا ومن قبلنا، فكان يقول له من حوله مثل ولد أبى الحسين بن عمار وجعفرين فلاح بن مرزوق، ومحمد بن سليمان: يا أمير المؤمنين، مصر قد أفنت رجالكم وفرغت بيوت أموالكم، وقد طمع فيها آباؤك مرة بعد مرة فما تم ما أرادوا. وكان الدعاة يقولون: إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها، وبيننا وبينكم الحجر الأسود، وليس هذا كغيره، فإن لم نملك هذه الأرض كلها فكلما نقول لكم باطل. يعنون بالحجر الأسود كافوراً الخصىّ الأسود أمير مصر .

فمات كافور فى سنة ست وخمسين وثلثمائة، واختلف العسكر بمصر، وكان أميرسهم ابن عبيد الله بن الأخشيد وكان شيعياً قد دخل فى الدعوة، وكان رخواً مخنثاً، فقال له أبو جعفر بن نصر، أيها الأمير، أمير المؤمنين أبو تميم المعز لدين الله هو لك كالوالد، والجند فقد طمعوا فيك، فإن شئت أن تدع الأمر له حتى يدبره لك، فإنه أبصر بتدبير الجند وأقدر، فقال: أى والله أريد الراحة منهم، وأقبل على أبى يعقوب بن الأزرق الكاتب الأنبارى فقال له: يا أبا يعقوب، قد جعل هؤلاء الجند فى فؤادى كل دودة مثل هذه، وأشار إلى إصبعه، وأخذ ابن نصر كتابه إلى أبى تميم بذلك.

فأرسل أو تميم صاحبه وهو عبد كان لهم من الروم يقال له جوهر، فخرج فى مائة إلف فوافى مصر ودخلها بلا حرب ولا قتال ولا خلاف فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، واستولى على الكنوزز وبيوت الأموال، وخرج أميرها أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن الأخشيد فأقام بالرملة، فخرج إليهم جعفر بن فلاح فى عسكره فكبسه وأنفذه إلى جوهر، فأنفذه إلى المغرب[1]، إلى أبى تميم. فلما حصل عنده أظهر له البشر والبشاشة وقال له: أنت ولدى ولحمى ودمى، وإنما أنفذت جوهراً لنصرتك وطاعتك، والله يا بنى ما حصل جوهر بقلشانة هو منزل بالغرب من أفريقية، فطعن ابن عبيد الله أن الأمر كما قال، فقد يسعى بجوهر والقواد الذين استأمن وات إليه من المصريين، مثل نحرير الأزعلى، ونحرير شويزان، وشمول، وغيرهم من القواد والأمراء، وكان كل واحد منهم كقارون فى الغنى، فكتب المعز إلى جوهر فقبض عليهم وغدر بهم أجمعين، وجملهم إلى المغرب وقبض نعمهم وكنوزهم. وحصلوا بالمغرب مع ابن عبيد الله بن الأخشيد فما يعرف لهم خبر إلى هذه الغاية. ووافى إبو تميم الذين بالأحساء عليه أتاوه وجزية يأخذونها منه عن أعماله وما فى يده، فأخرها عنهم واستطال عليهم وعلى الناس كلهم بملكه

---

(١) في المخطوط: «أنفذه».

مصر. وقال جوهر وقد ذكرت له قرامطة الأحساء والجزية التى لهم عليهم، فقال: من هؤلاء الكلاب، الآن أنفذ كتامة إلى الأحساء فيشدون براذينهم على أبوابهم ويسبونهم.

واحتجب المعز بمصر، فكان لا يصل إليه إلا الواحد بعد الواحد من خواصه، وبث جواسيسه وعيونه وثقاته من الرجال والنساء فى الناس يتعرفون له أخبارهم، من الجند والعامة، ويأتون بها، ويلقون من الأراجيف فى الناس ما يوصيهم. وطال استئثاره حتى أرجف الناس بموته. وهو متوفر على ال تنعم والأغذية التى تشحم وتسمن، والأطلبة التبة التى تنقى البشرة وتحسن اللون والصورة. ثم ظهر للناس بعد مدة طويلة، وجلس لهم فى حرير فائق رائق أخضر مذهب عمامته منه، وعلى وجهه الجواهر واليواقيت وهى تلمع كالكواكب، وأوهم أنه كان غائباً فى السماء، وأن الله رفعه إليه، وكان يتحدث بما كان يأتيه به أصحاب أخباره فى حال اتتاره، ويوهم أن الله أطلعه على تلك الغيوب، ويعرض بالجمل دون التفصيل، ويقول: قوم: قالوا كذا، وقوم قالوا كذا، وقوم عزموا على كذا، وبث الجواسيس بالأراجيف بأنه كان فى السماء وأن الله استزاره ورفعه إليه، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه، وظنوا ذلك، وأن كل ما يتوعد به ويعد به من تلك الأرض كلها حق.

ووافى العراق أبو على الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الجنابى من الإحساء فى عسكر، والسلطان ببغداد أبو منصور بختيار بن معز الدول، فسأله أبو على هذا القرمطى أن يأخذ له عهداً ولواء من الخليفة المطيع لله ولاية على مصر والشام، وقال لهم: أنا أعرف بهذا المخرق أبى تميم منكم، وأعرف أصله وأبوته ومخاريق عبد الله بن ميمون القداح وأولاده، وأن ألغ به أقصى المغرب وأرده من حيث جاء. فقال الخليفة المطيع لله لبختيار وقد سأله ذلك: لا أفعل هذا، هؤلاء كلهم قرامطة. وهؤلاء قتلوا الحجاج بمكة، فإن تابوا من ذلك وبرئوا ممن فعله وتركوا التسمى بالسادة وليتهم، وإلا لم أفعل، فثقل على أى علىّ هذا وكان يعترف بالتقصير وبرئ من فعل إخوته وبنى عمه من

أبى سعيد وأبى طاهر وغيرهما من آبائه وأخذ يعتذر لما صنعوا بمعاذير طويلة. وأنهم ما فعلوا ذلك عداوة للإسلام ولا خروجاً عن طاعة الخلفاء من بنى العباس، فما قبل ذلك المطيع، وأقام على منعهم. وطال خضوع أبى علىّ هذا فما أجابهم المطيع، فأشار عليه بختيار أو غيره بأن يذهب ويدّعى أن المطيع قد ولاك، وقيل له: العسكر الذين معك جندك وأهلك وأصحابك ومن مالك تنفق عليهم، ولست تطمع فى أن يعطيك المطيع شيئا من مال ولا جند، فقبل ذلك.

وما كان رغبته فى تقليد المطيع إلا لتقبله العامة بالشام ومصر، فلما لم يجبع المطيع إلى ذلك اتخذ هو لنفسه إعلاماً سوداً ورايات، وكتاب عليها المطيع الله أمير المؤمنين، وتحته السادة الراجعين إلى الحق، ثم سار إلى الشام. فلقى عساكر أبى تميم وواقعهم وقتلهم، وقتل أميرهم ابن فلاح، وقتل أصحابه واستولى على الشام، وأقام الدعوة للمطيع ولخلفاء بنى العباس، وأظهر بتعظيمهم ووجوب طاعتهم، وأخذ فى لعن أبى تميم، وذكر آبائه واحداً واحداً، وأنهم ولد القداح، وأنهم ما كانوا قط انحجز مع عساكره بمصر، ومع هذا فيبذل له من الجزية والاتاوة أكثر مما[1] كان يأخذ قبل هذا، والحسن هذا يقرأ كتبه على الناس ويبين فيها عيه ومخاريقه، وبلغ بأبى تميم الخوف منه إلى أن حصن مدينته بمصر وهى التى يسمونها القاهرة، وشيد سورها وأوثقه، وحفر خندقها وعمقه، والحسن يبلغه ما ينادى به أبو تميم من فضائحهم تحريضاً للناس عليه، فيقوم بالشام وينادى بفضائحهم وعداوتهم للإسلام كما مذكور فى كتبه وأشعاره فيهم.

ولكثرة ما قال وبين من ذلك، قال أبو بكر النابلسى رئيس الفقهاء بالشام: جهاد هؤلاء أولى من جهاد الروم، وغزو هؤلاء أولى وأوجب من غزو الروم، إذ الروم أهل كتاب وهؤلاء كفار مشركون ليسوا أهل كتاب بل هم أعداء

---

(١) في المخطوط: «ما».

جميع الأنبياء وجميع الكتب التى أنزلها الله، والروم لا تكتم دينها بل تفضح بما تدعوا إليه، وهؤلاء يضمرون الشرك ويخدعون الناس بإظهار التشيع.

وسار الحسن هذا حتى نزل على خندق القاهرة وحاصر أبا تميم وأشرف على أخذه، فبذل أوب تميم الأموال لابن الجراح الطائى هذا الذى هو حى وهو كثير العشيرة، فغدر بالحسن هذا، وأخذ سواده من ورائه وشغله بنفسه، وأفسد تدبيره فانصرف عن الخندق وانهزم بمن معه، ولحق أبو تميم المنهزمين من أصحاب الحسن فأخذهم وأخذ أتباع العسكر وأهل السوق فى العسكر، وأرسل إلى الشام وأخذ أبا بكر النابلسى الفقيه، وسأله عما بلغه عنه وما أفتى فيه، فاعترف به وقال له ما هو أغلظ منه، فأمر بسلخه حياً فسلخ، وهذه عادة لهم فى سلخ المسلمين أحياء، قد فعل ذلك سعيد وغيره، وأخذ منظهر به من قرامطة الأحساء فأكرمهم ووصلهم وخلع عليهم وعاتبهم وردهم مكرمين إلى الأحساء.

وضمن أبو تميم لابن منجا القرمطى صاحب الحسن الأموال له خاصة إلى أن أصلح بينه وبين الحسن وبين أهل الأحساء فضمن ابن المنجا ذلك له، وكان من الماسورين فأطلقه وأطلق غيره من الأسارى، فذهبوا وأصلحوا بينهم، وقبلوا الأموال والأتاوة من أبى تميم وأجراها لهم فى كل سنة، فكفوا عنه، وأخذوها منه فى حياته إلى أن مات، وأخذوها من ابنه هذا المتسمى بالعزيز، وهو نزار أبو المنصور بن سعد، إلى أن حاصر الأصفر العقيلى القرامطة بالأحساء وقتل من يخرج منهم، فهم إلى هذه الغاية ما يخرج لهم سرية خوفاً من الأصفر.

وبادر نزار بن أبى تميم هذا فهادى الأصفر بهدايا كثيرة نفيسة، وحمل إليه أموالاً عظيمة، وسأله أن يرسل إليه ثقة له، فأرسل الأصفر ابن أخته فأكرمه نزار الكرامة التامة، وحمل على سرج من ذهب، وقاد بين يديه الخيول، وأعطاه الأموال على أن يدعو خاله للدخول فى دعوتهم على أن يقطعه البلدان العظيمة من أرض الشام. فمنع الأصفر من ذلك رجل معه من

أصحاب أبى حنيفة يقال له أبو بكر محمد بن محمد النيسابورى، فقال له: لا تغتر بما يظهره نزار من أنه من المسلمين وأنه يدعو إلى الإسلام وإلى الحق، فإنه شر من هؤلاء القرامطة الذى بالأحساء، وهم الأصل فى الفساد الذى وقع فى الإسلام، وخذ الأموال التى أعطوك فإنما هى هدايا أهدوها لك، وابتدؤوك بها. فأرسل الأصفر إلى نزار فى جواب الرسالة: إنى لست أجيبك إلى قبول ما بذلت من الاقطاع بالشام إلى أن أفرغ من الأحساء وأهلها، وأعرفك ما عندى.

فيقال لهؤلاء الدعاة: قد تفرغتم لشتم رسول الله ﷺ، وأكثرتم الطعن فما أتى به والتعجب من اتباعه والإقامة على دينه، من غير أن تجدوا له كذبة أو عثرة أو زلة كما لم يجده أسلافكم من أعدائه قبلكم، ولو كان كما تزعمون لا فتض كما تفتضحون فى كل طرفة عين فضائح لا تحصى لكثرتها، ولو أعملتم النظر والتفكر والتدبر لعلمتم صدقه ونبوته، وكان علمكم بذلك يزيد على علم غيركم، فإنكم مع تيتركم فى ابتداء أمركم به ﷺ، وإظهاركم الاعتصام بشريعته والدعاء إلى المهدى من ولده، ومع أخذكم له العهود والمواثيق بستر ما يلقونه إلى الناس، ومع كونكم فى الأطراف والبوادى ومعدن الجهل والغفلة من المغرب، ومع تجنبكم الفطناء والأدباء وأهل البحث والنظر قد افتضحتم هذه الفضائح، فلو كان كاذباً ومحتالاً كما تقولون لكانت سبيله سبيلكم.

قالوا: إذا حقت الحقائق وحصلنا مع من قد نظر واعتبر اعترفنا بأنا مبطلون ومحتالون، وأنا قد سُخر منا حيث دُعينا، وسخرنا من الناس بالتشيع، وخدعناهم كما خدعنا وما ها هنا إلا مبطل.

قلنا: أما أنتم صدقتم عن أنفسكم وثبتت فضائحكم، فهاتوا له[1] ﷺ هفوة أو زلة أو كذبة حتى يكون فى مثل حالكم، فإنكم ومن تقدمكم لا تجدون ذلك ولا تهتدون إليه.

---

(١) في المخطوط: لهذا.

فقال الزنجانى اقاضى وهو رئيس من رؤسائهم وله أتباع، كتاب ورؤساء فأين الشعر الى هجى به.

قيل له: فى الشعر الذى هُجى به، الدعوى عليه بأنه كذاب وساحر مثل ما تدعى أنت وأمثالك عليه، وفى القرآن مما ادعوه عليه أكثر مما فى شعر أولئك الشعراء، من ادعائهم عليه أنه ساحر وكاهن، وأنه قد اكتتب بأساطير الأولين وأعانه على ذلك قوم آخرون، وأحد لا يكون كاذباً بدعوى خصومه عليه كما لا يكون نبياً بدعوى أوليائه له، وأنما يكون نبياً بالحجة كما قدمنا ويكون كاذباً بأن يشار إلى أكاذيبه وحيله، وتذكر وتفصل كما أشرنا إلى أكاذيبكم وحيبكم وفضائحكم وبيّناها مفصلة.

وإنما أشرنا إلى هذا الزنجانى القاضى لأنه كبير فيهم، ومن أتباعة زيد ابن رفاعه الكاتب، وأبو أحمد النهرجورى، والعوقى، وأبو محمد بن أبى البغل الكاب المنجم، وهؤلاء بالبصرة أحياء وغيرهم فى غير البصرة، ومما يلجئون إليه ويفرحون به وهو عندهم أكبر حجة لهم، قالوا: قلنا لأبى تميم: يا أمير المؤمنين: إن ابن رزام قد وقف على سر الدعوة وعرف أصولها، قال: إليس مع هذا قد صرنا جماعة وصارت لنا مقالة.

قالوا: فإذا كنا مبطلين ولنا من الحيل والفضائح والأكاذيب أكثر مما عرفه ابن رزام، وأكثر مما عرفه من بعده، ومع هذا فقد صرنا جماعة وصار لنا ملك وصار الخلق كثير أتباعاً يدعون لنا المعجزات والآيات والدلالات وأن صاحبنا المهدى وحجة الله على خلقه وإن كان لا أصل لذلك، فأمرنا من أدل الدليل على كذب كل من ادعى النبوة وأطاعه الناس وكانت له جماعة ومقالة وشريعة.

وقد قال أبو تميم مرة: لا يهولنكم ما صنعه ابن رزام، فما تحوى الأرض كلها مئّى إنسان يعرف ذلك، فاستغلوا بطلب الملك فإن الناس فى غفلة، فإذا ملكتم الناس قبلتم هؤلاء الذين يعرفون سر مقالتكم.

قالوا: وهذا نزار بخطب له فى الحرمين والمواسم، وينادى فى الحرمين أمير المؤمنين العزيز نزار صاحب الدلالات والعلامات والمعجزات، فلا ينكسر ذلك منكر، وما يعرف له من المعجزات إلا بيع الخمور وإقامة دور الزوانى والقوادين ونكاح الذكران وأخذ المكوس، فإن قلتم لنا: إن السيف أسكت الناس عن الإنكار، قلنا: وكذا حال من قبلنا من الذين ادعيتم لهم النبوة.

قيل لهم: مع كونكم قاهرين غالبين وتمام حيلكم على الناس لستم تخرجون من أن تكونوا مبطلين مفتضحين، وإن قل من يعرف فضائحكم، ولو لم يكن واحد من الناس كلهم اشتغل بطلب عيوبكم لما خرجتم من أن تكونوا مبطلين مفتضحين، حتى لو رام كل عاقل فى الأرض أن يعرف فضائحكم وكيف كان ابتداء أمركم لعرف ذلك، ولو طلبه لوجده ولأحاط به من أوله إلى آخره، فليس تمام حيلكم على من خدعتموه وسخرتم منه بجاعلكم من الملحقين، ولو تمت حيلكم على أهل الأرض أجمعين، ولو أسكتهم خوفكم وسيفكم، وهو كما قال بعض الناصحين للملوك الظالمين: إنكم إن قدرتم على على ذات أيديهم فلن تغلبوهم على عقولهم، فما أثمرت غلبتكم وتمام حيلكم ووصايا أبى تميم لكم إلا الويل الطويل والخزى المقيم الذى يسكت أولكم وآخركم، وما أنتم فى هذا إلا كمن خدع رجلاً وعاهده وبذل له غليظ الأيمان أنه من أنصح الناس له، حتى وثق به يفتخر بما ملكه واحتيو عليه، فقيل له: أنت وإن وصلت إلى هذا فلست تخرج من أن تكون كاذباً غادراً. وقولكم: إن من ادعى النبوة فى مثل حالنا فى الباطل، وقول رئيسكم: أفسد أمور الناس ثلاثة: راعى وطبيب وجمال وأغيظهم لنا الجمال، فإنه أفسد سائر الناس، يعنون بالراعى موسى، وبالطبيب عيسى، وبالجمال محمد صلوات الله عليهم أجمعين، فهل معكم إلا الدعوى والتكذيب عليهم والغيظ منهم.

وانظروا فى أمر هذا الذى غيظكم منه أشد، فعهده أقرب، وأعلامه أظهر وهو ما قد ذكرناه لكم من القرآن ففيه أتم الحجة، وما جاء مجئ

القرآن ففيه زيادة الحجة، فيجدون أول أمره كآخره، وظاهره كباطنه، وسريرته كعلانيته، وكيف يفضح الله الطاعنين عليه من الأولين والآخرين ولا تزداد حجته إلا قوة ولا برهانه إلا إنارة، وانظروا فى أول أمركم وفى آخره، وفى ظاهره وباطنه، فإنكم تجدون ذلك فى غاية الفضيحة، فإنكم فى مبتدأ أمركم وظاهره تدعون إليه وإلى التمسك بشريعته، وباطن أمركم خلاف ذلك، فما لبثتم أن افتضحتم تلك الفضائح.

وبعد، فلو صدقتم الناس عن دعوتكم وكاشفتموهم بها، كما فعل رسول الله ﷺ فيما دعا إليه والأنبياء قبله، لما اتبعكم مسلم ولا يهودى ولا نصرانى ولا مجوسى، ولا كان يتبعكم من يقر بالربوبية، فأمركم أصدق شاهد فى سلامة النبوة من كل عيب، فتركتم هذا وقلتم: دعونا منه وخذوا فيما تم لنا وفيمن خدعناه وأن افتضحنا، ونحن فما قلنا: إن أحداً لا تتم عليه حيله ولا يسخر منه ولا يخدع، وأن المبطل لا يتبعه أحد. وكانوا قديما إذا وعدوا الناس سرعة خروج المهدى فأخلف ذلك عن ميقاته الذى ذكروه قالوا لمن يستبطئ ذلك ويسأل عنه، فيقول: ألم تقولوا لنا إن الفرج يكون فى هذه السنة وما رأينا فرجاً، فيقولون له: استغفر الله وتب إليه فهذا كفر، ويتلون قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾[1] ومثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[2] فيتحير ذلك اليائس وفى عنقه أيمان قد قيدته عن الشكويولقاء العلماء ويخاف أيضاً مما قد توعدوه به من أن جعفر بن محمد قال: من أفشى سرنا أذاقه الله حر الحديد فى الدنيا والنار فى الآخرة، وربما قالوا قد سخط الله على أهل الأرض فبدا له من إظهاره فى الوقت الذى وعد أن يظهر فيه، والله يؤخر المقدم ويقدم المؤخر، وجواباتهم تحسب ما يرون فى السائل من فطنة أو بلادة أو فقر أو غنى، أو عز أو ذل، فيورون عن فضائحهم بألوان الحيل.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٧ .

(٢) سورة لقمان آية ٣٤ .

فيقال لهم: قولكم أخر الله خروجه عن الوقت الذى وقته لذنوب العباد ولسخطه عليهم، كل هذا سخرية وفضيحة لكم، فأن الله عز وجل لا يعاقى عباده بإخلاف مواعيده وبكذب إخباره، وأذا قال الله إنه يفعل كذا وكذا فى وقت كذا وكذا، أو أن فلاناً سيفعل كذا وكذا فى وقا كذا وكذا، فإن ذاك يكون كما أخبر وكما قال فى الوقت الذى قال لا يتأخر عن ذلك ولا يتقذم عليه، لأنه عز وجل عالم لنفسه لم يزل كذلك ولا يزال، يعلم ما سيكون قبل أن يكون وما لا يكون إن لو كان كيف كان يكون: وقولكم: هذا مما بدا لله فيه، فإنما يجوز البداء على المخلوقين، وعلى من لا يعلم العواقب، وأما علام الغيوب ومن يعلم ما يكون قبل أن يكون، فلا تعرض له البدوات، ولكن الله عز وجل أبدى للعباد كذبكم وأظهر بهذا فضائحكم، فأحلتم كذبكم على ربكم وبرأتم منه أنفسكم.

ومما يسألون عنه، ما جاء فى الرواية من قوله ﷺ: «بيت لا تمر فيه جياع أهله». وهذا قصر مولانا العزيز ما فيه أحد يأكل التمر ولا يشتهيه، وما هم جياع بل شباع[1] قلنا: قد علم هو ﷺ وأصحابه الذين قال لهم هذا أن ها هنا أمما كثيرج لا تجد التمر وفيهم من لا يشتهيه وهم شباع، وإنما أراد بذلك أهل المدينة وأمثالهم من بلدان النخل، والقوم الذين هم أكلة التمر، وأقواتهم التمر، فحضهم على اتخاذ النخل لقوت عيالهم، وهذا من مسائل أهل الخيبة والإفلاس.

ومما يسألون عنه، ما جاء فى الرواية من قوله ﷺ: «الشفاء فى لعقة عسل أو شرطة حجام أو آية من كتاب الله»، وقوله:« الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين»، فقالوا: نحن لو أطعمنا العسل المحموم والمبرسم أضررنا به وربما قتلناه، وكذا صاحب الصفراء، ولو حجمنا المفلوج والملقو وصاحب الرطوبة لضره ذلك وأقسمه، قالوا: وقد يقرأ القرآن كله على العليل فلا يبرأ،

وربما مات، ولا يعرف الناس فى أدوية العين ما الكمأة.

قلنا: ما قال النبى ﷺ لا دواء إلا هذا ولا شفاء إلا فى هذا، وإنما قال: فى هذا الشفاء، وقد صدق ﷺ. فإن الناس يجدون فى العسل من الشفاء فى الأدوية والأغذية والمطاعم ما يعم نفعه ولا يمكن دفعه، وفى الحجامة شفاء عظيم لخلق كثير، ولم يأمر ﷺ بذلك فى كل مرض فيكون لقائل مقال، وقد قال ﷺ: ماذا فى الأمرّين من الشفاء: الصبر والشقاء، وذكر ﷺ الشفاء فى أشياء كثيرة من فواكه ونبات يطول شرحها، ونهى عن أكل أشياء كثيرة فى أمراض، ونهى الرمد عن أكل التمر، إلى غير ذلك مما جاء عنه ﷺ مما يطول شرحه، وإن لم يكن معالجاً طبيباً فما وجد فى قوله مع كثرة ما قاله كذب، وقد علم هو ﷺ والذين قال لهم هذا الذى أراده، وأن الناس قد يتداوون بهذه الأشياء ومع هذا فيموتون ويهرمون، وعلى أن هذه الأدوية لا تفعل الشفاء بل لا تفعل شيئاً البتة لأن الفعل لا يكون إلا من الحىّ القادر وهذه الأدوية موات، والشفاء لا يفعله إلا الله عز وجل، وقد يفعله بلا دواء ويفعل السقام مع التداوى، ولكنه عز وجل قد أجروى العادة بأن يفعل الشفاء عند التداوى فى بعض الأحوال والأوقات دون بعض، كما قد يفعل النبات عند البذر والشقى وقد لا يفعله مع ذلك، وقد ينبت ما لا يحرثه العباد وقد أجرى العادة بالشفاء من الأمراض المتفاوتة المتضاده بالدواء الواحد وهو القرآن فما كان للناس دواء فى القديم غيره، حتى لا يكاد يحضى من شفاه الله ذلك لكثرتهم، ولا يحصى عددهم إلا الله وحده، وكانوا يستحيون من الله أن يصفوا أمراضهم للأطباء والمخلوقين وإن كان فى ذلك رخصة، لأنهم قد علموا أن السقام والشفاء من الله لا يفعله غيره ولا يقدر عليه سواه، فكانوا لا يشكون ذلك إلى إليه ولا يعرفون قارورة ولا ذكر طبيعة.

ولما مرض أبو بكر الصديق ﷺ قيل له: ألا ندعوا لك طبيباً؟ فقال: لا الطبيب أمرضنى. ولما مرض الربيع بن خيثم قيل له: ألا شاورت طبيباً؟ فقال: قد أردت هذا، ثم ذكرت عداً والقرون الخالية وقد كان لهم أطباء فماتوا ومات

الأطباء.

وقال الحسن: أدركت أقواماً والله ما كانوا يعرفون الهليلج ولا التليلج وهذا ماء زمزم وهو غليظ وهو لما شرب له، ولو جمع جميع من داواه المتطببون فماتوا عن علاجهم لما كانوا أشطر من وهب الله له الشفاء من علته عند شرب ماء زمزم وحده.

وعلى أن ذلك الماء وحده يصلح للأمراض المتفاوتة المتضادة المختلفة وهذا الذى ادّعينا فى القرآن وفى ماء زمزم هو ما كان عليه الصحابة فى الصدر الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، إلى تابعى التابعين والذين بعدهم، يعرفه كل من سمع أخبارهم وتصفح سيرهم، وخلق كثير عليل مثل طرائقهم فى بلدان الإسلام يستشفون بالقرآن وبماء زمزم من أمراض متفاوتة.

وربما ادّعوا ذلك عند سماع كلامنا، فيقولون: الترياق الكثير قد تعطيه فى الأمراض المتفاوتة، ولو كان ذلك كما ادّعوا لكان آكد لما قلنا، ولكن ما يكاد يوجد ذلك فى أدويتهم وأخلاطهم كما وجد الناس ذلك فى القرآن وفى ماء زمزم.

فأما قولهم ليس فى أدوية العين ماء الكمأة فإن هذا قول من لا يعرف الربوبية ولا العادة ولا الطب ولا الأطباء، فإن أدوية الأمم مختلفة غير متفقة، **فطب الهند غير طب العرب، وطب الروم غير طب الفرس، وطب سكان المدن** غير طب سكان القرى، ولحنين ابن اسحق كتاب ذكر فيه أدوية كثيرة لا يعرفها بقراط ولا جالينوس ولا ذكرها، منها : الجدرى والحصبة، وزعموا أنه لا يعرفها، حتى قال ابن زكريا الرازى: يشبه أن يكون قد عرفها. فإنه قال: العس جيد لغليان الدم، فقيل له: كذا تظن أنت يا ابن زكريا. فإن قيل: مثل هذه الأمراض الهائلة العامة الشاملة حتى لا يكاد ينجو منها إنسان إلا القليل، وحتى صارت تعرض لبعض البهائم، وهى خطيرة، لا تقتصر من جلينوس وبقراط وطب الروم واليونانيين على هذا المقدار مع كثرة كلام جالينوس فى كتبه فى صفة الأمراض والمرض ومن داواه.

وكثير من بلدان خراسان يتداوون من الحمايات الحادة باللحمان وبالشواء والاسفيداج وهو الشفاء عندهم، وأهل هراة وقاين وما إلى ذلك، يتداوون من الحمايات بتذويب الإلية والشحوم ويتحسونه حاراً ويستشفون به، وأهل نيساور يتخذون من ورائهم فى الحمايات بالسمن، وأهل طبرستان يتداوون من الأمراض بالثوم فى الشتاء والصيف ويقولون: هو فى الشتاء ار وفى الصيف بارد، وأهل قبال فارس يتداوون من الحمايات بالفراخ ولا يتدافعون أنها باردة.

وحتى أن كثير من الأدوية تنفع حينا ثم لا تنفع بعد ذلك بل يكون داء قاتلاً، لا بشئ أكثر من أنهم وجدوه كذلك. ألا ترى أن جالينوس كان يعالج المقروحين ومن فى صدره قرحة السعال وحمى الدق بالفلفل والزنجبيل وما أشبه ذلك، وهذا عند غيره، وفى هذا الزمان، وفى هذه لأمراض من الا دواء القاتلة.

ولقد عرض ببغداد فى زمن موسى بن سنان، وإبراهيم بن بكس أبو ابن بكس هذا الضرير الطبيب، والحسن الليهودى وأمثالهم من حذاق المتطببين ببغداد وهى إذ ذلك أعمر ما كانت، وهؤلاء القوم على البيمار يتانات وخدمة الملوك، فعرض القفاع وكثر، فقال موسى بن سنان لإبراهيم بن بكس خذ يا أبا إسحق إلى ساعورك من هؤلاء المقفعين مائة وتقاسموهم، فقال ابن بكس فرجعت فى علاجهم إلى أدوية جالينوس وأوصافه، فما داويت أحداً منهم إلا مات، ومازالت الجنائز حتى مات منهم ستون، فكففت من علاج الباقى وهم أربعون، فما مات منهم أحد.

والكتاب المعروف بالميمر لجالينوس وهو سيفه وتجاربه الذى كان يداوى به المرضى، لا يقربه المتطببون ولا يداوون أحداً به، وكذا الكثير من كتبه، وقد كان أبو الحسن بن زهرون الصابى الحرانى واحد الطب ببغداد ورئيسه يتسقط جالينوس فى صناعة الطب ويستجهله لما ذكرنا من علاجه، وكان أبو

الحسن بن نفيس وهو أحد رؤساء المتطببين. وهو أستاذ ابن بكس. يعتذر هو وغيره لجالينوس بأن الأدوية ما تجرى على سنن واحد، وأنها قد تنفع فى أمراض بعينها فى زمن من الأزمان ثم تضر فى تلك الأمراض فى زمن آخر.

وكانوا يقولون: اعتبروا بما وجدنا فى سنى نيف وثلاثين وثلثمائة لما حدث القحط والغلاء ببغداد، وعدم أكثر الناس الأقوات وصاروا مرضى مطرحين على الطرقات لا دواء لهم ولا غذاء، ونحن نتردد إلى المياسير والملوك نداوبهم ونصف لهم التفاح الشامى والبنفسج ويجدونه ويتداوون بما ننصف لهم، ولهم من يمرضهم ويخدمهم فيموتون ويبرأ الكثير من أولئك الذين على الطرقات.

واختلاف الأدوية كاختلاف الأغذية، ألا ترى أن إجناس الأنعام وذوات الحوافر تغتذى بالأحطاب والأتبان والحشائش المرة الكرهة القاتلة لحيوان آخر من الإنس وبالنوى، فيصير هذا الحطب وغيره شحماً ولحماً ولبناً.

والسمك والخنازير والدجاج وكثير من الحيوان يأكل القذرة ويخلق الله بذلك فى أجوافها شحماً ولحماً ولبناً. والنعام يغتذى بالحصا والنار والحديد ويحمى له سيخ الحديد فيبلعها فتذوب فى قوانصه ويخلق الله من ذل شحماً ولحماً وبيضاً ويدرق القل مثل الماء الجارى، والظبى يغتذى بالحنظل ويشرب ماء البحر، والأرانب تغتذى بالأيهل وهو سم قاتل، والسقمونيا ترعاه البهائم والاقنيمون الأقريطشى ترعاه البهائم وتحيا به والبيش تأكله البهائم التى هى على هيئة الفأر وهى معروفة به، وكل هذه سموم قاتلة لحيوان الإنس، والحيات يأكلها قوم، ويأكلها الأيل والقنفذ والسنور وغير هذا من الحيوان، ولا ينكر اختلاف الأغذية والأدوية إلا جاهل.

على أن الطب ليس بعلم، وإنما هو شئ وجد بالتجارب، ثم لا تدوم تلك التجارب ولا تمضى على طريقة واحدة، بل تختلف اختلافاً كثيراً متفاوتاً كما قد رأيت وسمعت، وذلك من آيات الله ودلائل توحيده وإنما أجرى به عز وجل العادات ولا يديمه على طريقة واحدة بل يزيد فيه وينقص منه ويجعله فى وقت ولا يجعله فى آخر، حراسة للحق، ولئلا يلتبس الدليل بما ليس بدليل، لأنه عز وجل لا يفعل الجهل والضلال.

وقولنا فى الطب ليس بعلم لأن كان علما لا يتغير فطّ، كالعلم بأن الفعل لا يكون إلا من فاعل، ولا بد من أن يكون قبل الفعل، ويكون حياً قادراً، وإن كان فعله منسقاً محكماً فلابد أن يكون عالماً.

ولهذا يقول حذاق الطب: إذا قيل لهم فى مريض قد أجمعوا على دوائه بدواء معين، فيقال لهم: إن سقيناه هذا يعافى ولا بد؟ قالوا: لا ندرى. قيل لهم: فإن لم نسقه يموت لا محالة؟ قالوا: لا ندرى، ونحن فقد يطيعنا القليل فنداوية ونرى أمارات الصلاح فيه ثم يرد من زيادة المرض ما لا نحتسبه، وقد يعصينا ونرى أمارات الهلاك ويرد من العافية ما لا نحسبه.

هذا معروف مذكور فى كتبهم، ولسنا مع ذلك ننهى عن التداوى، بل سبيل كل أحد أن يرجع إلى الله عز وجل ويستشفى بالقرآن وبماء زمزم وبالصدقة فمن شاء أن يقتصر على ذلك فعل، ثم إن كانت له عادة بالتداوى تداوى بعد أن يقدم ما ذكرنا، فقد جاءت الرخصة بالتداوى بما يحل من الشريعة لأنه قد جاء فى الأثر: «ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم»، وجاء: «عود بدناً من اعتاد».

ثم ليس إلى السلامة سبيل وإن دامت الصحة، وقد قال ﷺ « كفانا بالسلامة داء»، وهذه كلمة قصيرة كثيرة المعانى، فإن الإنسان وإن دامت صحته فهو معها يهرم ويبلى ويتغير وإن كان طبيباً حاذقاً مقتدراً، وكان أبو عثمان عمرو عبيد كثيراً ينشد قول القائل:

يهوى البقاء فإن مدّ البقاء له ... وصدقت نفسه فيه أمانيها
أبقا البقاء له فى نفسه شغلاً ... مما يرى من تصاريف البلى فيها

وقال آخر:

إذا مات المعالج من سقام ... فأحرى بالمعالج أن يموتا

وقال آخر:

يعيش راعى الضأن فى جهله ... عيشة جالينوس فى طبه

وربما كان راعى الضأن فى جهله أدوم صحة وجلداً وبقاء من جالينوس ومن حذاق الأطباء، وأنت تجد هذا عياناً من الرعاة و الملاحين والزبالين وأشباههم، وقل ما يوجد طبيباً حاذقاً سليماً من الأمراض، هذا أبو الحسن بن بكس عرض له الرمد وأبوه حىّ وبالغ فى علاجه، فذهبت إحدى عينيه، ثم طب وحذق وزادت صناعته وذهبت الأخرى بعد ذلك، والمعروف بالتلميذ، به فتق وغيره من الأمراض، وابن سابور قد عرضت له فى خصيتيه أذرة قد أثقلته لايمكنه أن يركب، وسنان الصابئ أكثر أسقاماً، وتلميذه أبو عبد الله بن المعلم ها أنت تشاهده أصفر سقيماً قد نهكته البواسير، وابن المهزول وأبوه طبيب حاذق مات وما بلغ ثلاثين سنة، وابن بنت أبى الحسين ابن بكس إمرأة أبى الحسين الطبيب عرض لها مرض أشب ما كانت، وأبوها طبيب، وزوجها طبيب، وعمها طبيب، قد أجمعوا على علاجها فماتت بأسرع من ذاك.

وهذا بيت بنى زهرون الصابئين ومحلهم فى الطب والعلم بصنعته المحل العظيم، ولهم من القيام على أنفسهم والمراعاة للطب وتوفيته حقه، وهم خلق كثير ومنزلتهم فى الجانب بالشرقى من سويقة عباسه، وأمراضهم وأسقامهم تكاد تزيد على أمراض الجهال الفقراء الذين تقل مبالاتهم بالحياة والصحة، وأكثرهم يموتون فى الشباب والجهولة، ويقل فيهم من تعلو سنه ويهرم، والذى بلغ منهم نيفاً وثمانين سنة هو أبو الحسن بن هرون أو أبى الخطاب يحيا وهو شاب وبه مرض عظيم، وهؤلاء حذاق الطب وأبناء الحذاق.

ولم تعيرهم بالأمراض فإنها من فعل الله ومما يبتلى به عباده، ولكن ذكرنا هذا للاعتبار والتنبيه على آيات الله عز وجل وهو المبتلى والمعافى، ولأن أكثر هؤلاء الأطباء يعتقدون أن الأدوية تفعل، ولها طباع تفعل الصحة، وتنفى الأمراض، وغير ذلك من الجهالات، وينكرون النبوات، ويكذبون الأنبياء ويستجهلون المسلمين وأهل الشرائع، وينكرون الربوبية والبعث والنشور، وعندهم من الحمق والجهل والعجب ما لا يبالون بمن قتلوا من المرضى وأسقموا من الأصحاء، ويقولون فى أنفسهم وفيما بينهم إن التقينا فاقتصوا منا كيف شئتم وإلى غير ذلك من جهلهم وحمقهم وإرصادهم للمسلمين بما يطول شرحه.

وقد عرفت حال من تقدم فى زمانك من أسلافهم وتجريدهم فى الإلحاد مثل قسطا بن لوقا، وحنين بن اسحق، وابنه اسحق، وأشباههم. وقد عرفت مكاشفة ابن زكريا الرازى، فهذا كان نصرانياً بن نصرانى، يتستر بالنصرانية ويذهب مذاهب الملحدة، ثم أظهر الإسلام وتسمى بمحمد، وكان اسمه يوحنا. وإنما فعل ذلك مكيدة للإسلام. وكان يقول: محال أن يقدر الله أن يخلق الإنسان من غير تناسل ويكمل له عقله وقوته ضربةً، وأنه لو قدر على ذلك لفعله كما نرى حالاً بعد حال، وليس ما يشاهده العقلاء من خروج الفروج من بيضته كاسياً كاسباً غنياً عن أبيه وأمه وعن أمثاله، وخروج فرخ الوز سابحاً لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه العقلاء من المعلمين للسباحة، وما يبنيه النحل، وينسجه العنكبوت ودود القز، وكل هذا ضربة واحدة، وقد تقدم لك ذكر أمثاله فى المصباح.

ونسى ما خلقه الله ضربة واحدة من السموات والأرضين والجبال، ومن بياض القطن والطير والخيل، وما خلق الله ألوانه ضربة واحدة، وكذا طعومه وأرائحه، فإنه كان ينكر القدرة على خلق العنب وأمثاله ضربة، وكان يقول: لابد من أن يكون أولا حصرما أخضر، ثم بدت فيه بعد ذلك الحلاوة الحلاوة والسواد، وكان يقول فى الشيب: إنه من تعفن الرطوبات فى أصول

الشعر، فيقال له: الخيول والطيور وغيرها من المخلوقات بيضاء ضربة ولا رطوبة.

وكان يقول: ليس لله نعمة فى خلقهم، وما خلق الله من الصحة والأسماع والأبصار والقول والجلد والشهوات وما يجدونه من اللذات، ويقول: هؤلاء الذين اعتقدوا هذا جهال حمير لا يميزون، وإنما الذى يجدونه من اللذة راجعة من ألم فيهم ووجع يعتريهم، كالذى يجد من الراحة من أثقله بوله وغائطه حين يضعه، وكالذى يستريح بحك جربه ويضع المرهم على شجته وجرحه. وكل عاقل فى الدنيا يفرق بين ما يلتذ به وبين ما يتداوى به من جرحه، ويتمنى بقاء ما فيه من شهوة وشباب وجلد ويحرص على اجتلابه، ويأسأ على ما فاته منه، ويبكى وينوح على مافاته منه كما يبكى على فقد أحبابه، ولذهاب سمعه وبصره، ويتمنى ردّ ذلك عليه، ويستوصف الأطباء ما يقول اللشهوة ويعيدها وهو لا يتمنى الجرب ليحتك، ولا القروح والجراح ليتداوى، ولا أثقال الغائط والبول له ليقعد لإخراجه. وهذا من الجهل الواضح الذى يعرف بالحس، والعجب أن لابن زكريا فى مواضع من كتبه فى الطب أبواباً فى حفظ الشهوة والصحة والشباب والجلد والقوة، ويوصى بذلك أتم الوصايا.

ثم فهم ينسون المشاهدات ويدفعون الضرورات، وقد شغلهم الغيظ على من جعل هذه نعماً من الله ووعد بأمثالها فى الجنة، ويدعون لأنفسهم ولمن أطاعهم فى ظنهم أنهم يبرونه ويديمون صحته وجلده، وحالهم وحال الملوك الذين استطبوهم وأطاعوهم ما قد عرفه الناس.

وبنزاز هذا الذى زعم أنه العزيز وفرعون مصر ظهرت بثرة فى مشط قدمه قد أضنته ونغّصت عيشه وقد جمع لها حذاق الأطباء. وبذل لهم الرغائب، وهم حوله ومعه لا يفارقونه، وهم آثر الناس وأوجبهم عنده، وما يزداد مرضه إلا قوة، وهو جلد وسيم جسيم.

وقد كان سلطان بلخ عرض له مرض فوصف له ابن زكريا الرازى ما رغبه حتى رحل إليه، فاقترح على هذا السلطان مسألة أبى القاسم البلخى رحمة الله عليه إجابته عما يسأله، ففعل السلطان ذلك، وألزم أبا القاسم هذا فأجابه، ثم قال لابن زكريا: قبل كل شئ فما رأيت أحمق منك، فقال له ابن زكريا: ليس هذا من خلقك وأنت موصوف بالحلم وحسن الأدب، فقال له أبو القاسم رحمه الله: أنا أبين لك ذلك، أنت رجل تنكر ما يقوله المسلمون وأهل الشرائع فى الربوبية والنبوات وتراه جهلاً، وهم يرون ما أنت فيه كفراً يحل دم من ذهب إليه ورآه، وأنت بينهم وهم معك وحولك فى ألوف فراسخ، وأنت تبدى ذلك وتناظر فيه ولست تحسب الأجر والثواب فى المعاد ولا فى العاجل على ذلك لأنك لا ترى بالمعاد والجزاء، فهذه واحدة وأخرى،، إنك تدعى صحة الكيمياء،، وأنك تجعل الحجر والمدر ذهباً وفضة، ولك فى ذلك كتب تنكر على من أنكر ذلك وكذب به، ومع هذا فقد خاصمتك إمرأتك فى نفقتها ونفقة ولد لك وأحوجتها إلى أن رفعتها إلى الحكام ليفرضوا عليك كما يفعل ذلك بأفقر الناس وأقلهم حيلة، فهذه ثانية، وأخرى، أن ينصرك من الضعف، ويعينك من المرض اللازم ماهو هو بيّن، وأنت تدعى علم الطبائع ولك حذق فى الطب والتقدم فيه والازراء على من تقدمك من الأطباء، كابن ماسويه وغيره، وعلى أطباء أهل زمانك فكان منعذر الرازى فى سقم بصره حبّه الباقلاء وكثر أكله له، وأنه يفضله على اللوز، وأنه أطيب منه، ثم من بعد هذا نزل الماء فى عينى الرازى هذا وعمى، وكان يجئ بمن يقدح الماء منه ويجىء بمن عمى من نزول الماء فى عينه فيستوصفهم كيف عموا، ومتى نزل الماء فى أعينهم، وما كانت أغذيتهم، ويجىء بمن يقدح الماء من عيونهم عنده ويدبرهم على أحوط ما يكون فى ذلك ليجرب وينظر كيف الأثر فى ذلك، وكد وبذل وجمع الأطباء فما رجع عليه بصره، ومات أعمى، وقد كان يعرض له من وجع أذنه ما يقلق القلق العظيم، ويمنعه النوم والقرار، ويتداوى بكل ما ذكره المتطببون فى ذلك وهو على كل حال يتقدم فى صنعة الطب، كثير الكتب والمقالات فى ذلك، حتى

دخلت إمرأة على إمرأته ورأت ما به من القلق، فسألت إمرأته عن ذلك فقالت: من وجع أذنه، فقالت المرأة الداخلة: هذا وهو طبيب، وقد سمعت أن الخنفساء الميتة إذا أغليت مع دهن الورد وقطر فى الأذن من ذلك الدهن منع من وجع الأذن، فقالت له إمرأته ذلك، فقال: افعلوا وبادروا لعله ينفعنى، ففعلوا وقطروا فى أذنه فزعم أنه نفعه.

ومثل هذا من الأدوية هذا من الأدوية يحكيه جالينوس كثيراً أنه استفاده من القوابل ومن الأكرة ومن الملاحين، وكم قد عرض لحذاق الطب من الأمرا ض التى لا تظهر، وكم هى فيهم وبأى أمراض ماتوا، فنعوذ بالله من الذهاب عن الله ومن التوكل على غير الله، وإنما ذكرنا هذا لكثرة دعاوى هؤلاء الجهال.

وكم قد بقى الناس وهم لا يعرفون الفصد، وكانوا أطول أعماراً وأصح أجساماً. والروم لا تعرف اليوم لا الفصد ولا الحجامة، ولا الدواء المسهل ولا القئ، ولا تتداوى بشئ من ذلك هذا الغالب عليهم، وأجسامهم صحيحة وصحتهم وجلدهم متصل حتى يقال إن أكثرهم إنما مرضهم مرض موته، ولو أراد المسلمون أن يستغنوا عن الأطباء بمعرفة صنعة الطب لفعلوا، وكان مطلب ذلك والوقوف عليه أقرب وأيسر من معرفة اللغة والنحو والعروض، وهو أن يقرأ شيئاً[1] من كتبهم، وطول مشاهدة المرضى، ولو تكلف هذا من قد عرف صنعة الكلام، وأن الفعل لا يكون من الجماد ولا من الموات، ولا يقع ا من الحى القادر، وأن هذه الأدوية أنما هى بمجرى العادة، وأنه قد يكون ولا يكون، وينفع ولا ينفع، وأراح المسلمين من هؤلاء الأطباء فإنهم جهال بالأصول، والغالب عليهم الإلحاد والقسوة وقلة المبالاة، ومن كان منهم يظهر المجوسية فليس بمجوسى، أو يظهر الإسلام فليس بمسلم، هذا الغالب عليهم، وكذا وجدهم من خالطهم وبحث عنهم، فما أحرج الناس إلى من يجعل الطب فى أمناء

---

(١) في المخطوط: شراً.

المسلمين الأتقياء، فإنها أمانة عظيمة، وإن كان ليس فى البقاء مطمع، ولا إلى السلامة سبيل، ولكن يتخلص المرضى من تعذيب الملحدين لهم، وممن يتمنى الأسقام ليأخذ أموالهم وتسؤه صحتهم وسلامتهم، فما فى الأرض أغيظ من دوام صحة الناس من هؤلاء الأطباء، لما فى ذلك من الاستغناء عنهم وعلى أن الناس ممن هو طبيب نصرانى وليس بمحلد فى مكاره وكذا الصيدلانى وبائع الدواء إذا كان ذلك.

وقد كان الشيخ أبو عبد الله الحسن بن على البصرى رحمه الله يذكر عن ثقة حدثه أن قوماً من النصارى قالوا لعبد الله غلام إسرائل الصيدلانى النصرانى، وكان فى المخرم فى الجانب الشرقى ببغداد، أن فلاناً يؤذى النصارى ومنك يشترى الأدوية فأكفيناه، فقال: افعل.

وأبو الحسن بن كعب بالأنصارى أحد علماء المسلمين، وكان صديقاً للشيخ أبى بكر أحمد بن على الرازى رحمهما الله، وكان بينه وبين الصابئين المتطببين خصومة فى صنيعه، فدسوا إلى طبيبه وأعطوه مجمعاً للمباضع ففصده وأشار بالفصد عليه فقتله.

وذكر الشيخ أبو عبد الله عن حنون المتطبب وكان صديقه وصديق أبى الحسن الكرخى رحمه الله، وحنون هذا، هو أبو أبى الطيب المؤمل هذا الذى يحيا وأسلم.

قال حنون قال لى المروزى الطبيب وكان أستاذى: يا حنون، اذهب إلى فلان فقل له: عنى ينبغى أن تفصد، وافصده ولا تكثر فضولك، قال: فذهبت وزبلغت الرجل هذا فقبل وفصدته ورجعت إليه، وقلت له: ما كان به حاجة إلى الفصد، فقال لى: كذا هو ولكن كان لى عليه وظيفة من دراهم يحملها إلىّ، وقد قطعها عنى، فأردت أن يحتاج إلىّ فقصدت إسقامه بالفصد.

وأما أبو الهاشم بن أبى على رحمهما الله، فقتله أبو حسن اليهودى المتطبب لاعتراضه ونقضه لكتب أرسطاطالس، وكان جاره يؤنسه ويخالطه

ويريه المحبة، فشكى إليه يوماً شيئاً يجده، فقال: المصلحة أن تفصد، فركن إلى قوله، واستدعى حسن أخاه موسى ففصده، فلما خرج الدم، قال له أبو هاشم هذا دم جيد صافى فلم تخرجه، فقال له موسى هو جيد الكيفية إلا أنه كثير الكمية، فمرض أبو هاشم عقيب ذلك ومات.

وكان حسن هذا ظاهر اليهودية وهو ملحد، وكان أحد أطباء الملوك ببغداد. أما موسى هذا، فذكر عنه أحد تلاميذه أنه دخل على عليل وسأله عن خبره فأخبره بما يتداوى به وبما يغتذى به فقال له موسى من أشار عليك بهذا قال فلان الطبيب، قال: نعم ما أشار عليك، وقام وخرج وركب، قال تلميذه وهو يعقوب بن يوحنا هذا الواسطى، منزله الجانب الشرقى فى دار الروم وفى درب البصرى، فلما ركب موسى مشيت مع البغل وجاريته فى شأن ذلك المرض من غير أن أشير إلى العليل، واستفتيته فى أدويته فأفتانى بضد ما كان ذكر له ذلك المريض، فقلت له فهذا العليل هذا مرضه وقد أخطأ عليه طبيبه واستصوبته أنت قال: نعم على عمدٍ، قلت له: ، ولم؟ قال: علتك بين طبيبين أقتل حتى يموت.

وكم لهم مثل هذا ولقد قال طبيب لسلطان كبير وهو موفق بن المتوكل، وكان جسيماً وسيماً أكولاً، وهناك من يكره حياته، فأكل يوماً ألباناً كثيرة فى ألوان كثيرة، قال طبيبه وأنا واقف وهو يأكل ولا أنهاه وأقول فى نفسى هذا يفلج اليوم، لأنه زمن ويأكل هذا لا محالة، فإن لم يفلج، فالطب باطل. فلما أكل وفرغ دخل الخيش ونام فيه، وصرت إلى منزلى، فلما كان بعد قليل سمعت قعقعة بغل البريد فقيل لى: أجب الأمير، فقلت فى نفسى: فلج لا محالة فركبت وجئته؛ فإذا هو فى حمى عظيمة مطبقة دموية، فاحتاج أن يفصد من يديه ويخرج من الدم أربعمائة درهم، فكان ذلك بالضد من صناعة الطب وقوانينه.

ومن تدبر وجد العجائب من آيات الله فى كل شئ، وخيانات هؤلاء كثيرة، وقد أساء إلى نفسه من استعملهم فى الطب والجراح وائمتهم. وهذه الصفة مما ذكرنا أن هذه الصنعة ليست بعلم وإنما هى تجارب بحسب ما أجرى الله العادة.

وفى الأفاعى ما يلسع بعضها بعضاً فيموت المسوع، وتلسع بعض الناس فتموت الأفاعى ولا ينال الملسوع مكروها، وقد تلسع الإبل والقنفد والسنّور وابن عرس وغيرها فلا تضر، هذا عام فى الحيوانات، فأما فى الإنسان فنادر. وزعم الكندى المتطبب، أن الخليفة المعتصم استدعاه قال فقال لى من تكون: قلت: أنا يعقوب ابن اسحق الكندى، فقال لى: عندنا إنسان يرسل عليه الأفاعى فإذا لسعته ماتت ولم يضره، وأنا أحب أن تشاهد ذلك. قال: فأتى برجل طوال نحيف أسمر خلاسىّ، ثم دعا بسلال الأفاعى فقال: يا فّى نرسلها عليك؟ فقال: على اسم الله، رسمى قبله. فأقبل علىّ المعتصم وقال: رسمه علينا أن نطعمه الكباب ونسقيه النبيذ وتعطيه ديناراً، أحسبه قال على كل أفعى، قال: ففعلوا ذلك، وأرسلوا عليه الأفاعى فأى أفعى لسعته ماتت مكانها وهو كأنشط ما يكون، فقال لى المعتصم: ما عندك فى هذا؟ فقلت: أنظر فيه وأعاود الفكر وأعرّف أمير المؤمنين، قال الكندى: وقد عمل رسالة فى هذا الباب، فعدت إلى المعتصم فأخبرته أن هذه الأفعى قد ط ال مكثها وقد ضعف سمّها وشربت الماء، فهات الأفاعى التى ما شربت الماء قال الكندى: فجىء بها وأرسلت عليه فمات.

وهذه غفلة من الكندى، هب الأمر كما قال وسمّها قد بطل أصلاً فما السب أنها تموت إذا لسعت، وقد كان ينبغى أن تجرب هذه الأفاعى فى غير هذا الرجل، فإن لم تضر أحداً غيره فقد أصاب الكندى.

وعقارب الفاطول يموت بعضها من لسع بعض ولا تموت عن لسعها غير العقارب، ومن عجسى العقارب أنها تلسع الأفعى فتموت الأفعى، وقد تلسع أكثر الناس فلا تموت، والعقرب التى يحدث من لسعها الموت على غايته

ضعف الخلقه، ولعلها أن تكون أضعف من العنكبوت الصغير وأبرتها كالشعرة، وهو توجد بالبنذنجيين وبرامهرمز وبعسكر مكرم من كور الأهواز، والأطباء يرجعون فى التداوى من لسعها إلى أهل تلك البلدان، فيقولون لهم: بأى شئ جرت عادتكم بالتداوى من هذه العقارب، فيذكر شيوخهم وعجائزهم للأطباء، فيعلمونهم ويكتبونه فى كتبهم، وعقارب ( )[1] قتالة، وثم عقارب كبار تضرب القمقم وغيره فتحرقه بإبرتها ولا يكاد يموت أحد من لسعتها، بل ربما ماتت هى، وكل ذلك من آيات الله عز وجل. وفى الحيوان من يعرض له عند لسع العقارب البرد والخدر، ومنهم من يعرض له الحمى والالتهاب. وللقد لسعت العقرب رجلاً مفلوجاً فذهب عنه الفالج، وهى مشهورة ذكرها الأطباء فى كتبهم. وكم يجدون فى تجاربهم وما يحدث على الأيام مما ليس فى كتب المتطببين ولا فى تجاربهم بل هو بالضد مما كبتوه فيكتبونه ويخلدونه وكل ذلك من آيات الله، ويزيدك علماً أن الطب تجارب، وشئ قد أجرى الله به العادة لقوم خلاف قوم، ثم لا يستمر كما قد تقدم لك بيانه، ومن الناس من يأكل العقارب والحيات.

وهذا الكندى هو أحد الملحدة الذين ظاهرهم الإسلام، وهو كوفىٌ، وكان أحد المياسير، فأنفق أمواله كلها[2] فى مكاره الإسلام وفى الطعن على الأنبياء أجمعين، وله رسالة يدعى فيها أن سبب المد والجزر إنما بهو زيادة القمر، وفى الأرض بحار ليس فيها من المد والجزر ما فى بحر فارس، ولكها تحت السماء، وعلى جميعها يطلع القمر. وكم لهذا الكندى من الجهالات كما لابن زكريا الرازى فى الخواص والكيمياء، فاطلب كتبه فى الكيميا وقف عليها وما يحكيه عن نفسه وغيره، لتعرف غباء أعداء الإسلام وكذبهم وفضائحهم.

والرازى يزعم أنه خرج إلى ملك بخارى ليعالجه وأن الثلج منعه فى

---

(١) كلمة مطموسة من المخطوط.

(٢) في المخطوط: «كله»

طريقه من الاجتياز فنزل على رجل كبير واسع النعمة، وكان له ابن قد أضناه المرض فطال عليه فصار كالخيال لطول الضنا، قال فأرانيه وشاورنى فيه، فلم يكن له دواء ولا فيه رمق، فيئست منه وأمرت بمداراته والرفق به لقرب أجله، وخرجت إلى بخارى وأقمت طويلاً، ثم عدت فنزلت عليه، وإذا بحضرته فتى ذكىٌ حرك ظريف فأعجبنى ذكاؤه وحركته، فسألته عنه، فقال: هذاهو العليل الذى كنت رأيته، فاشتد تعجبى، فقلت، كيف كان وبأى شئ داويتموه؟ فقال: ضاق صدره وأشتدضجره، فقال لإمرأة كانت ربته قد حمل إليها يوما سكباج: أطعمينى، فأبت وبقى السكباج فى الدار مكشوفاً[١]، فأقبلت حية فأكلت ما فى الصفحة ثم قذفته فى الصفحة وتقايأته، فمشى الغلام، وأخبرها الخبر فأرمت[٢] القصعة ثم عرض للغلام عرق وألقى من جلده كالنمشاء ثم أفاق وقام، و هذا كما ترى، فقال الرازى: أنا يما يدرينى أن فى دارك حية عمرها خمسة آلاف سنة.

فانظر إلى كذبه وقلة تحصيله وقلة حيائه وتحرزه ما يتحرز منه العقلاء فيها، أنه لا يعلم أن الأمر كما أخبر الغلام وإن غلب الظن على صدقه، وأخرى أنه لو كان يعرف أن دواء هذا العليل فى قئ حية عمرها خمسة آلا سنة لوصفه لهم لما رأى العليل، وأخرى إخباره بعمرها كأنه قد حصل ذلك واضطر إلى العلم به، وما يدريه لعل عمرها ثلاث سنين ولشبابها نفع سمها ولو كانت هرمة لما انتفع، فهو لا ينفصل من الدعاوى، وهذا من جنس قولهم: إن أفعى ولغت فى خمر وقذفته فى وعائه، وأن رجلا مجذوماً[٣] شربه فبرئ، وهو سبب إيجادهم أقراص الأفاعى. فإن كانوا صادقنى فهذا من الجنس الذى أخبرنا عنه من آيات الله فى إجراء العادة وما تقدم من ذكر ذلك.

---

(١) في المخطوط: مكشوف.

(٢) كذا في المخطوط.

(٣) في المخطوط: «مجذوم».

ويحيى بن خالد صاحب مربعة الأحنف يذكر أن العقارب لسعت أصحاب[1] ضروب من الحميات فافاقوا.

ويحيى بن خالد هذا كان طبيباً حاذقاً مأموناً معروفاً بالصدق، وكان يعالج ولا يتكسب بصناعة الطب، ويحفظ له الناس من اللطائف وحسن التأنى شيئاً كثيراً.

وكم تجد منهم من يصف الدواء للعليل وهو حريص على بزئه فيقول له: إن قبلت رأيى وشربت هذا الدواء وفصدت عوفيت من ساعتك، فيطيعه فيموت. فإن قيل له فى ذلك أخذ فى التخريج والدعاوى، وإذا قيل للعقلاء منهم: ما السبب أن الإنسان إذا صب عليه الماء الحار بوّله؟ قال: نريد عللاً مشدودة بخوص إن أردتها ذكرناها.

وكذا قيل لهم ما السبب المثير للعطش عند أكل السمك واللبن والباقلاء وهذه كلها باردة رطبة بطبع الماء، وما السبب فى انقطاع العطش عند أكل الثوم وهو حار يابس والعطشان يدخل الحمام فينقطع عطشه ويدخله الريان فيحدث له العطش، فأما الجاهل الملحد المعاند فيأخذ فى البهت والكذب والدعوى الباطلة.

ومن جناياتهم أنهم يرسمون فى الطب والمدخل إلى الطب الكذب الذى ليس من الطب بسبيل، كمسائل حنين فى المدخل إلى الطب، أن أجسام هذه الحيوانات مركبة من الهواء وهو حار رطب، والعقلاء كلهم إذا أرادوا أن يبردوا شيئاً أو يجففونه أبرزوه للهواء. ثم يقول: ومن الأرض وهى باردة يابسة، والأرض جسم من الأجسام تجوز عليه الحرارة والبرودة وكذا الماء وكذا النار يجوز أن يغلبها الله ويخلقها شجراً ومدراً وثلجاً ويخرجها من أن تكون ناراً، وحنين لا يدرى أمن هذه الأشياء خلق الله السماء وغيرها من الأجسام أم من

---

(١) في المخطوط: «صاحب».

شئ آخر أم من لا شئ، كما خلق النار لا من نار ولا من شئ، وكما خلق الماء لا من ماء ولا من شئ، وكما خلق الأرض لا من أرض ولا من شئ، وكما خلق الشمس لا من شمس، وكذا القمر والكواكب خلقها لا من كواكب ولا من شئ، وقد خلق السماء من دخان كما خلق كثيراً من الحيوان من الماء، وإنما فعل ذلك عز وجل ليعتبر العقلاء من الملائكة والإنس والجن ولو شاء أن يخلق كل ذلك لا من شئ لفعل كما خلق ما قدمنا ذكره وما لم يذكره لا من شئ ولا لشئ.

أما ترى الإنسان المدبر المصنوع كيف يفعل الأصوات والحركات والتأليف والإرادات والاعتقادات والسكون لا من شئ، فيكتب ويبنى ويصوغ ويخيط وينسج وغير ذلك من أفعاله لا من شئ، فكيف للقديم الأزلى سبحانه وتعالى الحيّ القادر العلم الحكيم الغنيّ عن كل شئ الذى لم يزل ولا يزال. على أنه عز وجل، إن كان قد خلق الرمّان والتفاح والسفرجل وأشباه ذلك من النار والماء والهواء والأرض أو من الكواكب والسماء فهو أبدع من خلق أعيانها لا من شئ، وأدل على القدرة وسعة العلم، ولكن نحتاج فى هذا إلى خبر منه عز وجل.

فإن قالوا: وجدنا فى هذه الأجسام ماء ورطوبة، قلنا: غير منكر أن يخلق الماء الذى فيها لا من هذا الماء كما خلق هذا الماء لا من ماء بل خلقه لا من شئ.

وإذا قيل لهم زعمتم أن الهواء حار رطب فتبردون البارد بالحار، وزعمتم أن الصفراء حارة يابسة والعقلاء يجدونا رطبة سيالة يطفأ بها النار، قالوا: إنما قلنا الهواء حار رطب والصفراء حارة يابسة بالطبع قلنا: فهذا طبع وقول يكذبه الحس واللمس، وهذا كما قيل لابن عبد الوهاب الكاتب وكان قصيراً معجباً: أنت وإن كنت عند الناس قصيراً فأنت فى الحكومة والطبيعة والحقيقة وعند الله طويل، وعلى أن القول: من أى شئ خلق الله عز وجل هذه الأجسام؟ ليس من الطب بسبيل بل هو مشغلة عن الطب؛ وقد فطن لهذا

حذاق الأطباء فانصرفوا عنه وتوفروا على معرفة العادات والتجارب، وعلى أن فرط الجهل والحيرة تحمل هؤلاء على الكلام فى مثل هذا، ولفرط غيظهم من الأنبياء والمسلمين لقولهم: إن الله خلق الأشياء لا من شئ، واخترعها بغير شئ.

وأنت تجدهم يغتاظون من تحريم الخمر والأنبذة ولحم الخنزير، ويشيرون بذلك على المرضى، فإن وجدوا مسلماً يتوقى شرب الأنبذة كلها قالوا: الأنبذة من دوائك، وأهل العراق يبيحون لك. وإن وجدوا من يترخص ويأخذ بقول أى حنيفة فى الأنبذة، ذموا عنده التمر وما يكون من التمر، فإن وجدوه يشرب مطبوخ العنب ويتوقى ما سواه قالوا: ليس المطبوخ بشئ وإنما الشفاء فى الذى لم تمسه النار، ولذا قال جالينوس: وبها تعجن الأدوية، كل هذا عداوة لرسول الله ﷺ، ويذكرون عن أفلاطن أنه قال: ما دخل جوف ابن آدم شئ شرّ من الماء.

وكان جعفر المنصور وجد مرضاً، فذكر له طبيب بجند نيسابور فأحضره، فمكث فى داره زماناً وأقام فيها لعلاجه، فلما طعم طلب من الخدم خمراً، فقالوا له: ما فى هذا القصر خمر ولا شئ من الأنبذة ولا لك إلى هذا، سبيل فقال: أنا رجل ذمىّ وأستحله وبه أحفظ صحتى، وما شربت ماء منذ كذا وكذا خوفاً من شره، وأنا أخشى إن عدمت الخمر أن أمرض وأموت، فقيل له: ما شاء فليصبك مالك إلى هذا سبيل، فشرب الماء على كره فلما أصبح أخذ قارورته فإذا هى كما كانت وهو يشرب الخمر، فاشتد تعجبه وذكر ذلك لإخوانه.

وعندهم أن الحرارة الغريزية تقوى بشرب الخمر وتضعف بشرب الماء، حتى قال قائل منهم: والله ما حرم نبى العرب الخمر والأ شربة على أتباعه إلا لفضل عقله، فإن الانبذة المسكرة مضرة بالعقل جداً محيلة له وكذا الفناء، وما شئ أفضل من العقل، فكل ما أضر به وأثر فيه فخبيث ردئ، وقد وجد فى العسل وغيره ما ينوب عن الخمر وسائر الأنبذة فى إسخان المزاج وتعديل

الطبع مع سلامة العقل، فجناية الأشربة المسكرة فى تغيير العقل أعظم الجنايات وأكبر الأمراض، وليس الطبيب من داوى مرضاً بدواء أعقب مرضاً هو أعظم منه.

قال فأما ما يحدث لشارب السكر وسامع اللغناء من الطرب وسرور النفس والنزاقة والخفة فما هو إلا لنقصان عقله ولا فضله لها ولا خير منها، فنبى العرب أطب الأطباء وأفطن العقلاء، هذا قول من كان له عدواً ومكذباً.

وقد ذكر الناس فضل عقول أكلة التمر ولحم الجزور على أكلة لحم الخنزير بما هو مذكور فى غير هذا الموضع، والناس يعاينون حياة الحيوان والنبات بوجود الماء وتلفهم مع عدمه، ولا يغنيهم عنه خمر ولا غيره، بل تزيد الخمر فى بلائهم، وهم يذمون النخلة، وخيرات الدنيا مقسومة بين النخلة والنعجة والتمور من الأغذية الشريفة النافعة التى يحيا بها الحيوان الأنس وغيره.

وفى التمر مع اللذة بأكلة إخراج التعب وراحة للمكدود، والملاحون يسمونه لأجل هذا مسامير الركب، ولما قيل للأعرابى: صف النخلة قال: جذعها بناء كريها صلاء وسعفها ضياء وثمرها غذاء، ومقدات النعمة بالنخلة يضيق هذا المكان عنه وعن شرحه، ولأبى عثمان عمرو بن بحر رحمه الله كتاب فى فضيلة النخلة على كل نبات، وهو كتاب حسن جداً، وجهل هؤلاء عظيم وجناياتهم لا تستقال، ولعل من قد قتلوه بأدويتهم مع حسن نيتهم فيه وحرصهم على برئه أكثر ممن أفاق عند علاجهم، وكم فيهم من قد غلط فى نفسه وأولاده وأهله كبعلاج هذا لحذاقهم فضلاً عن المبتدئين.

ولهم إصابات فى الحميات إذا ابتدأت وكم تلبث ومتى تنصرف وكم دور يكون وبأى شئ يكون بحرانها، إما بالعر ق أو بالرعاف أو بالقئ أو بالبول أو بغير ذلك، هذا يعرفونه بالتجربة، وى غلب فى العادة، وقد لا يكون.

كما يعرف الملاحون الريح متى تسقط وكم تلبث، يعرفون هذا فى البحار

وفى الأدوية ويعرفون أزمانه كما يعرفون أوقات المدّ وأزمان زيادته، وأوقات الجزر، وينتظرون ذلك، وكما تعرف القوابل غيره من الحمل، وذكر هو أو أنثى، وكم تلد أمه بعده من ذكر وأنثى مما يتفق لهم فيه إصابات حسنة، وكل هذه عادات وتجارب. فإن قيل: فإذا كان الدواء والسم لا يقتل، فلم تذمون الساقى لذلك والشارب له؟ قلنا: نذمه ونؤمه على ما حدث من فعله من الشرب والإسقاء، وإن كان ما يحدث من الموت من فعل الله، لأن الله أجرى العادة بفعل الموت عند ذلك، ونذمّه كما يذم من إلقاء غيره إلى السابع، وكما يذم من سعى بالناس إلى الولاة ودل على أموالهم وإن لم يأخذه الولاة ولا أكلهم السباع، لأن الغالب من ولاة الجور أخذ الأموال ومن السباع الأكل، كذا الغالب فيما أجرى الله به العادة: الموت عند شرب الدواء المسموم والسم، فليس ما جرت العادة بالسلامة معه وإن حدث عقيبه الموت، ألا ترى من أطعم غيره طعاماً لذيذاً ينفعه به فمرض عقيب ذلك ومات لم نلمه لأن الغالب فى العادة السلامة.

ونلوم من سقى غيره سماً قاتلاً فعوفى وانتفع بذلك أتم منفعة، فإنا نلومه ونضلله ونؤثمه، والرجوع فى جميع ذلك إلى غالب العادة.

فإن قيل: فلم أبيتم أن يقع الفعل من الجماد والموات بالطبع، قلنا: لو وقع الفعل بأى وجه كان من الجماد والموات ومن ليس بحى ولا قادر لكان لا اعتبار بأن يكون الفاعل حياً قادراً، ولا حاجة بالفعل إلى أن يكون فاعله حياً قادراً، ولوُجد البناء والكتابة والصياغة وغير ذلك من الإنسان وإن جهل وإن عجز وإن اجتهد فى أن لا يقع ذلك منه وإن مات، فلما لم يقع ذلك منه وهو ميت، وقد علمت أن الفعل لا يقع من الحى القادر، وإن كان متسقاً محكماً ففاعله لابد عالم.

ولو وقعت الأفعال من الجماد والموات بالطبع أو بغير ذلك، لوقع من الحجارة والسحر والماء والنار والهواء وغير ذلك البناء والصياغة والنجارة والكتابة على أن هذه الأشياء كلها دون ما أضافوه إلى الأدوية والسموم من الأفعال، لأن الموت والحياة والعافية والسقم أعظم من الخياطة والكتابة

وجميع ما ذكرنا، والعجب لجهل هؤلاء إجازتهم وقوع الحياة والموت والصحة والسقم من الجماد بالطبع ولا يقع منها كتابة ثلاثة أسطر ولا نساجة بارية طولها ثلاثة أذرع.

فإن قيل إنكم قد دفعتم الضرورة بقولكم إن الفعل لا يقع من الجماد والموات فنحن نجد الشبع يأكل الخنزير ويزول معه الجوع، وكذا الرىّ عند شرب الماء وكل هذا معلوم باضطرار.

قيل له: المعلوم باضطرار زوال الجوع بأكل الخبز والعطش بشرب الماء، هذا لا ينكر ولا ينكره عاقل، فأما من ادّعى أن الفعل للخبز والماء، وأنه قد علم ذلك باضطرار، فقد ركب جهلاً، لأن الحىّ الناطق العاقل المستطيع ليس يعلم ما يقع منه من الكتابة والبناء أن فعله باضطرار، وإنما يعلم ذلك باستدلال.

ألا ترى أن العقلاء يختلفون فى ذلك، فيقول المنجمون أن من وقع منه الجور والغدر فذلك من فعل المشترى، ومن وقع من الجور والغدر فذلك من فعل المريخ فيه، ويقسمون الأفعال كلها على ذلك، ويجعلونها لغير من ظهرت منه.

وكذا تقول المنانية، فتجعل ذلك للنور والظلام، ويقولون آخرون إنه لحملة الفلك والكواكب فى حيوان الأرض، ويقول المجبرة: إنه من فعل الله فيهم، فإذا كان فعل الحى القادر العالم ليس يعلم أنه هو الفاعل له باضطرار، فكيف صرتم أنتم تعلمون باضطرار أن الإحراق فعل النار، والشبع فعل الخبز، والذى فعل الماء والعافية فعل الدواء بالضرورة، وهذا قول من لم يعرف فعلاً ولا فاعلاً قط.

وإن كان حكم النار مخالفاً لحكم الدواء والخبز والماء، لأن النار قد خلق الله فيها الحرارة والاعتماد صعداً، فهى اله للعباد فى الإحراق والتقطيع، والإنسان المثير لها هو المحرق بها لا هى، كما أن الضارب بالسيف والقاتل به

هو المفرق لأجزاء ال مقتول بالسيف لا السيف، وكذا القاتل بالحجر هو القاتل به لا الحجر.

وقد قال أبو هاشم وغيره: إن العاقل يعلم باضطرار أن الجماد لا يقع منها فعل ولا تفعل، كما يعلم أنها لا تسمع ولا تبصر، وإن كان مانى القس الذى تقدم ذكره يقول إنها تسمع وتحس.

ولكم لما وقع الإسهال عقيب شرب بعض الأشياء ظن هذا الجاهل أن ذاك فعل الدواء، كما ظن هذا عند صوت الخشبة إذا شقت ونشرت أن ذاك صحيح منها لتأملها، فاحتجنا أن ننبه على فرط جهلهم، وإن كان الأمر فى الوضوح كما قال أبو هاشم وهم فى هذا كمن قال للبيضة فعل الديك، والحيوان فعل أيه، لأن ذلك يؤخذ عقيب سفاد هذه الفحولة، كما أن الإسهال يكون عقيب شرب الدواء.

فإن قالوا: فقد يكون السعد ولا يكون الولد وقد يكون ولا يكون، قيل له: وقد يكون الإسهال عقيب الدواء وقد لايكون، حتى أن الطبيب يعطى لمن بدنه مملوء بالصفراء دواء ليسهله عشر مجالس فقد لا يسهله. وقد يريد يسهله مجلس واحد، فربما جاءه عشرة مجالس، وربما أسهله مائة، وقد وجدنا الحنظال والسقمونيا يأكلها كبير الحيوان فلا يقتلها ولا يسهلها، بل غذوها ويحييها كما قد تقدم شرح ذلك.

وكذا قال أبو على رحمه الله للفلكيين والمنجمين حين قالوا: إن النبات فعل الشمس لأنا نجدها إذا طلعت على الأرض ظهر نباتها، فقال لهم: ولم إذا كان ذلك وجب أن يكون هذا الفعل وهذا الأثر للشمس، ثم قال: وقد تطلع على جميع الأرض والجبال وأكثرها لا ينبت شيئاً، وقد تغيب الشمس عن الأرض مثل مقدار طلوعها عليها من الزمان، فلم وجب أن يكون هذا الأثر لطلوعها دون أن يكون لغيابها، والنبات بحاله.

وقال لهم قد يحرث الحراث الأرض فى وقت الحرث ويسوق إليها الماء

ويلقى لها السماد والتراب بحسب حاجتها فتنبت وتربع عند هذا الفعل منه، ومتى لم تحرث ولم تبذر ولم يسق الماء إليها لم تنبت قليلاً ولا كثيراً وإن طلعت عليه الشمس والقمر والكواكب، فلو جعلتم هذا الإنبات والربع فعلاً للفلاح الحراث كان أشبه وأقرب من جعله فعلاً للشمس لأن الحراث حيّ قادر عالم، ولو كانت الشمس حية قادرة عالمة فإن النبات والربع يجدونه عند فعل الحراث لا عند طلوع الشمس. فكيف والشمس والقمر والكواكب جماد وموات، والعلم بأنها جماد وموات، كالعلم بأن الغيم والبرق والماء والريح والنار والذهب والياقوت والزجاج جماد وموات.

ومانى يدّعى فى أجسام السماء والأرض كلها قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها بأنها سميعة بصيرة حساسة دراكة، ولا فرق بين من ادعى هذا أو ادعى لشعاع الشمس والقمر كذلك، وأنه كاتب وخطيب، وإنما ذكرنا هذا لتعجب من جهله وجهل أتباعه ومن قال بقوله.

فإن قيل: فلم لا قلتم: إن النبات والربع فعل الحراث كما ألزمتموه مخالفكم؟ قيل له: لو كان ذلك فعله لفعله فى كل وقت ولبت فى كل وقت ولجاء على ما يدبره من القوة والكثرة، فلما لم يكن كذلك علمت، أنه ليس يفعله وإنما هو شئ قد أجرى الله العادة به عند حرث الحراث وعند طلوع الشمس وقد لا يكون كما تقدم ذكر ذلك.

وكان مما يسأل عنه هؤلاء الدعاة الذين قدمنا ذكرهم قوله ﷺ: «صوموا تصحوا» قالوا[1]: فها هنا من يصوم فيسقم وربما تلف، قيل لهم: هذا القول قاله لمن يصلح بالصوم ويحتاج إلى الصوم، وقد عقل المخاطبون ذلك عنه، ألا ترى أنه قال لهم بأن المسافر والمريض والهرم لا صيام عليه، وأن الفرض يسقط عنه، وهكذا شرع وبيّن، فتلا عليهم ما أوحى إليه ربه عز وجل.

---

(١) جاء في هامش الكتاب «تاويل قوله عليه السلام: صوموا تصحوا».

وكان مما يسألون عنه، قوله ﷺ: «سافروا تغنموا» و«بورك لأمتى فى بكورها» قالوا: وقد وجدنا من يسافر فلا يغنم ومن يبكر فربما سلب أو قتل، قيل لهم: قد مضى الجواب فى مثل هذا، وهو أنه ﷺ أمر بذلك من يحتاج إليه ليفعله على الوجه الذى يغلب على عقله أنه يسلم وينتفع، ألا ترى أنه ﷺ لم يأمر بذلك المرضى والزمنى ولا فى الأوقات المحرقة، بل قد نهى عن ذلك وتلا عليهم الوحى قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] وقوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[2] فقد عقل أولئك الذين خاطبهم عنه ﷺ مراده فى ذلك، وأنه ما أمر بذلك فى كل حال، وإن كان هناك مطر مانع أو برد أو حر أو عدو مخوف، وقد نهى ﷺ عن ركوب البحر وعن كل ما فيه غرر وخطر، حتى جاء عنه أنه من بات على سطح غيرمحجر فقد برئت منه الذمة، وأن من ركب البحر عند هيجانه فقد برئت منه الذمة.

ومما يطيعون عليه ﷺ قوله: «لو أهديت إلىّ ذراع لقبلت، ولو دعيت إلى كراع لاجبت» قالوا: فهذا تعرّض بالناس ورغبة فى أموالهم وحيلة على على ما فى أيديهم، أى هاتوا لى شيئاً وأهدوا لى شيئاً واطعمونى شيئاً، قيل لهم: إن نزاهته وترفعه شئ معلوم من أنه ﷺ ملك جزيرة العرب وهى أوسع من جزيرة الروم، وهى من شجر عمان إلى أوائل الشام فى الطول وفى[3] .....

منهم عظيم الشأن، وهى الآن باقية فا[4].....

وحازه وجى له وحمل ما له إليه، فحرم نفسه وأزواجه وأهل بيته من ذلك كله وبذله ووهبه للناس كما تقدم شرحه لك فى غير موضع من كتابك

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٥ .

(٢) سورة النساء آية ١٠٢ .

(٣) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٤) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

هذا. والمعلوم من سيرته أنه كان يكافئ المهدى بأضعاف هديته، والمنصف لا ينصرف عن الأمر المعلوم المتيقن باللفظ المحتمل، فكيف وهذا القول منه ﷺ من الآداب الشريفة والوصايا الكريمة، ونهى منه عن احتقار الفقراء والمساكين، وأنه يجب على الأغنياء أن يقبلوا منهم ما يهدونه إليهم وإن كان حقيراً قليلاً، وأن يجيبوهم إذا دعوهم فى ولائهم، وإن قل ذلك، وأن يظهروا لذلك البشاشة والمسرة والطلاقة، وكان ﷺ يقول: «إياكم والتكلف، وإذا حضر عند أحدكم زائر فلا يتكلف له ما ليس عنده، وبئسما لأحدكم أن يحضر عند أخيه فيحتقر ما يقدمه إليه.» وهذا معروف من وصاياه، وقد أخذه عنه أصحابه، فلهذا قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه لرجل دعاه فى وليمة شرط أن لا تتكلف لنا ما ليس عندك، ولا تؤخر عنا ما عندك. ولهذا قدم سلمان الفارسى رحمه الله لزواره خبزاً وملحاً جريشاً وقال لهم: كلوا فهذا الذى حضر، ولولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلف لتكلفت، وكان سلمان أميراً فى ثلاثين ألفاً من قبل عمر بن الخطاب[1].....

..... فى باب الدين والدنيا مربحة من بلايا عظيمة[2].....

قد يحمله ذلك على اغتصاب أموال الناس وعلى احتقار الفقراء فيوقعه فى كل ما يكره من تنغيص العيش والكد فى العاجل والعذاب الآجل، ولو أخذت فى شرح قدر المنفعة بهذه الوصية لطال به الكتاب. فكم فيها من نفى الكبر الذى لا يليق بالإنسان، وهو المعطب له والجالب عليه مقت الله ومقت عباده، وهو المعرض لزوال نعمته، وهذا من تواضعه ﷺ ومن بركاته على العالمين بوصاياه الشريفة النافعة فى الدين والدنيا، التى قد ذهب الناس عنها يميناً وشمالاً، ولو طلبوها واستعملوها لأغنتهم وأعانتهم على الدين والدنيا.

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

وقد جمع أبو أحمد الحسن بن سعيد العسكرى رحمة الله عليه ألف وصية فاطلبها واكتبها، فهذا من المحاسن التى قد ظنها هؤلاء أنها من المساوئ ولكن الخيبة والإفلاس أحوجهم إلى ذلك حين لم يجدوا فيه ﷺ مطعناً.

وكذا طعنوا فى قول أبى بكر الصديق حين أراد أن يستخلف عمر وقال له طلحة أو غيره: ما تقول لربك وقد استخلفت علينا فظاً غليظاً؟ فقال: أبربى تخوفنى؟ إذا سألنى قلت له: استخلفت عليهم خيرهم وأنفعهم لهم وأحرصهم على رشدهم وأقواهم عليهم، فقال الطاعنون: هذا تجبر وتكبر منه وليس كما ظنوا، ولكن هذا قول راثق بالحجة مدل بالحق، وهذا نظير ما قال الله لرسوله ﷺ أن يقولوه لأعدائه: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1] ونظيره قول هود عليه السلام لقومه[2]..... أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه لك[3]..... سقط علىّ.

وطعنوا فى قوله ﷺ: «إذا سقط الذباب فى إناء أحدكم فافعلوه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء»[4] وهو يبدؤنا بالذى فيه الداء وهذا ليس بمنكر، وقد تشهد ذباب النحل وفى شعرته الذى يلسع بها الدواء[5] وفى جوفه العسل وهو الشفاء.

ويطعنون عليه بأنه كان إذا أكل لطع إصبعه، قالوا هذه هى القذارة، وأين هو من آداب كسرى وفارس، فإنهم كانوا لا يأكلون إلا بالبارشين وبما قطع بالسكين.

وهذا أيضاً من محاسنه وفضائله فى أنه كان يلطع إصبعه، ويردف

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٥ .

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٣) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٤) الحديث فى البخارى رقم ٣٣٢٠ عن أبى هريرة ولفظه (إذا وقع الذباب فى إناء شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء).

(٥) كذا في المخطوط ولعل الأصح: الداء. وربما قصد الدواء، وقد ثبت علميا أن لسع النحل علاج لبعض الأمراض كالروماتيزم وغيره.

خلفه، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويعين خادمه، ويمشى مع الضيف والأرملة والفقير فى حاجتهم، ويصنع لهم، وكم له فى ذلك من وصية، وكذا كان خلفاؤه وأمراؤه لرعيتهم، وذلك مذكور فى موضعه، والإنسان لا يعاف ريقه والا ريق ولده ولا أحبابه، والريق أحد النعم العظيمة من الله على خلقه وفى جفافه وبطلانه من فم الإنسان هلاكه، وبه يسيغ طعامه، وما فى ذلك من النعم أكثر من أن يحصى، وهذا من تواضع الأنبياء وتعريف الناس أقدارهم، ولهذا يصق ﷺ يوماً على كفه ثم وضع إصبعه عليه، وقال: يقول الله تبارك وتعالى.

«ابن آدم أنىّ تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، جمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقى قلت: أتصدق وإنى أو إن[1].....

..... يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك[2].....

..... للظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود، ما غرّك بى إذ كنت تمر بى قداداً. [وهو الذى يخطر فى مشيئته ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ويتكبر.].

ولهذا قال مالك بن دينار للمهلب بن أبى صفرة وهو يمشى وكان ملكاً عظيماً وسلطاناً كبيراً، ما هذه المشية التى يمقتها الله إلا بين الصفين، فقال له المهلب: أو تعرفنى قال: أنت الذى أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفه قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة. فاستحيا المهلب وقال له: قد عرفتنى حق المعرفة، وكم مثل هذا فى وصايا السلف وآدابهم رضى الله عنهم، وهؤلاء يعيبونهم ويطالبونهم بالعجب والكبر، الذى لا ينبغى لمن صفته ما قال مالك بن دينار. كما يعيبونه ﷺ بأنه حرم المسكر والغناء، وليس الحرير والديباج، واستعمال أوانى الذهب والفضة، وكشف العورة والاشتراك فى الزوجة.

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

ونذار المتسمى بالعزيز لا يحرم ذلك ويتزين بالجوهر ، ويركب إلى الصلاة بالمزاهر، وبين العبيد والملاهى مجردين، ويستقذرونه ﷺ ويستنطقون كسرى والمجوس، وهم يتنزهون عن الماء ويتطهرون بالبول، فالبول طهورهم والميتة طعامهم، وأمه إمرأتة وصديقة وكيله فى وطنها إذا غاب عنها، والهريذ يطهرها بالبول حين يعاين فرجها ويباشر ذلك بيده، وأكل الميتة هو ما يشدونه من البقر فى عيد لهم ويأمرونها بعد الشد الوثيق[١].....

..... حتى تموت وحل أكلها وهو[٢] ..... فانظر من قد استضعفوا و[٣]..... ولا الطهور كما تقدم ذكر ذلك، وهم لا يأكلون مع المسلمين فى بلادهم فى صفحة واحدة. فاعرف هذا من أحوال هؤلاء وتعديهم على الله وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

وكان الحسن بن أحمد ملك البحرين قال لأبى الحسن الحرزى حين أخذ جوهر مصر وجاء أبو تميم يفعل إذا دخل مصر؟ وما الرأى له أن يفعل؟ فقال له الحرزى: إن هو قدم ورفع حجّابه وتواضع وأنصف الرعية وتباكى وقال إنما خرجت لغزو الروم وارتجاع الثغور ورحمة للناس من جور الديلم فهو يملك الأرض، فما بين يديه أحد، إنما هو ولد سيف الدولة، وناصر الدولة، ومعز الدولة، وهم فى غفلة وبطر، وجندهم الديلم وهم شيعة، فرجعت جواسيس الحسن بن أحمد من مصر فذكروا دخول أبى تميم وزيّه وركبه الذهب وملابسه المذهبة حتى خفه وما على رأسه وفى عمامته من الجوهر وما فى أدنى دابته، وأنه أطعم الناس على موائد من ذهب وفى أوانى الذهب، وكثرة حجابه، فقال: الحسن لأبى الحسن الحرزى: قد سمعت ما هو عليه فما عندك؟ فقال له الحرزى: اصفع قفاه فما بين يديك أحد، كلكم قد ظهرت مخرقته وماتت فضيحته، وكان الحرزى جريئاً عليهم يحتملونه ويستنصحونه

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٣) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

ويحدثهم بحليهم ومخاريقهم ويكشفونها له ويسزيدون له فى الحيل ثقة به. فأكب الحسن على أبى تميم كما ذكرنا وطمع فيه ذلك الطمع ونصحه تلك النصيحة وتشائمنا وتفاضحا[١].....

به ومات عقيب ذلك واغتم ذلك واغتم أبو تميم[٢].....

وأعطاهم ما أرادوا قبل أن يبعثوا عليه غيره، وأخرج إليهم أربعين كتاباً من كتبهم إلى آبائه وإليه وما بينهم من المخالصة وأن الدعوة واحدة كما تقدم.

وإنما جر هذا الكلام عيب هؤلاء الجهال على رسول الله ﷺ بلطع إصبعه وكونه لم يفعل من التجبر والتكبر بما يفعله الملوك، وهذا من محاسنه وآثار نبوته.

وكقوله ﷺ: «من أحب أن يمتثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»، وما أكل متكئاً قط وكان يجلس على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد» ويلبس الصوف ويعقل اعنز، ودخل مكة حين فتحها فى عشرة آلاف وهو على رحل رث، وإن عثونه لينال واسطة رجله من التواضع، ما زاده الله تسليطاً وتمكيناً إلا ازداد لله هيبة وإجلالاً، ومن المساكين قرباً وبهم رأفة وملابسه معروفة، وقبض ﷺ وحاله معروف، وبردته التى يتجمل بها الخلفاء تساوى دانقين.

ويوسف بن دحية ملك عمان وحدها يلبس الوشى المثقل بالذهب، ويستعمل أوانى الذهب والفضة وله العبيد والكراع والأثاث والخزائن، وكذا ملك البحرين وملك عدن، وكذلك ملك صنعاء واليمن، وقد ملك ﷺ هذا كله ونجران وتيماء وتبوك ووادى القرى، وغير ذلك مما يطول تفصيله، فلو أراد ما أراده هؤلاء لقدر على أكثر مما قدروا عليه، وقد ذكرنا ذلك وغيره من حال

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

خلفائه وزهدهم فهؤلاء[١] .....

واعلم أن قول الحرزى وعيسى ابن[٢] .....

..... لأبى طاهر ولأبى تميم ولأبى[٣]

التدبير فكلكم قد افتضح مع تستركم به، إنما هو غباوة عن معجزاته ودلائل نبوته، وأنه شئ تولى الله حراسته ونقض العادة به، فما زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولا أسكته خصم، ولا أخجله عدو، مع كثرتهم وجلدهم وطول مقارعتهم كما تقدم لك، ولكن هؤلاء الجهال لا يشعرون، قد جعلوا ما أعطاه الله من النصر والحجة أنه شئ ناله بوفور عقله وسداد تدبيره.

كما يقول هشام بن الحكم وابن الراوندى وأمثالهما فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه بأنه كان ناقصاً وجباناً وجاهلاً مجنوناً، وأنه ما بايعه أحد ولا أطاعه كثيراً أحد كما هو مذكور لهم ومشروح فى كتب الإمامية.

فقيل لهم: فكيف استوى له أن يغلب بنى هاشم وشيعتهم وأتباعهم وهم أعقل الناس وأشجع الناس وأفطن الناس وأشرف الناس حتى أطيع فى حياته ونفذت وصيته بعد وفاته، فأطيع خليفته بعده ووصايا خليفته بوصاياه فنفذت بعد موته فأطيعا حيين وميتين.

قالوا هذا عجز فيه الدهر، فكان هذرهم فى انقطاعهم أن سموا ما أعطاه الله من الحجة عجز فيه الدهر، كما قال أولئك فى حجة رسول الله ﷺ أنه وفور العقل وسداد الرأى والتدبير.

ومما يطعن هؤلاء الدعاة على رسول الله ﷺ ويعيدونه ويبدونه، أنه جاء مرة يطلب مولاة زيد بن حارثة ولم يكن فى بيته، وكانت إمرأته تخبز، فأخرجت رأسها من التنور وخرجت إليه[٤].....

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٣) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٤) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

..... وأخرج زيد بن حارثة فى سرية ليقتله[١]..... من المشيخين إنما معنى قوله: «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه» أى قد زينت.

والمتأمل يعرف كذبهم فى ذلك قبل أن يعلم أنه نبىّ صادق، لأن زيد بن حارثة رحمه الله مولاه وصاحبه قديماً قبل النبوة وقبل الوحى، خصيص به محب له، يسافر معه ويقيم معه. وإمرأته زينب بنت جحش هى بنت عمة رسول الله ﷺ وهو زوّجه بها، وقد رآها صغيرة وكبيرة، لو قال قائل إنه رآها ألف مرة لما خشى أن يكذب. وكانت زينب رحمها الله إمرأة سيئة الخلق كثيرة النفار لزيد، وكان رسول الله ﷺ يشق عليه ذلك، ويكره أذية زيد، وينهى زينب عن ذلك، ويعذلها ويأمر باحتمالها والصبر عليها، وكان ﷺ ودّ لما يرى من نفارها لزيد أنه لم يزوجها به لما يلقى زيد من أذاها، وأنه كان ﷺ قد تزوجها فكان أولى بالصبر على قرابته من الغريب، فأوحى الله إليه أنها مع خلقها مؤمنة، وإن زيداً سيطلقها،، فإذا طلقها فتزوجها أنت وضمها إليك، فلم يلبث زيد أن طلقها وجاءه فأعلمه ﷺ ذلك، فقال رسول الله ﷺ لزيد: راجعها وأمسكها، وستر عن زيد ما أوحى الله إليه، فعوتب فى ألا عرفه ما أوحى إليه، فلم يؤثر زيد مراجعتها، واعتدت، فتزوجها رسول الله ﷺ، وكان من قصتها ما قد ذكره الله فى سورة الأحزاب، فبين الله ذلك والسبب فيه وعاتبه الله كونه ستر ما أوحى إليه عن[٢].....

وما زال زيد مقيماً على طا[٣]..... والمحبة وبذل النفس فى طاعته[٤]..... مؤثة باذلاً نفسه فى نصرة رسول الله ﷺ، وقد ودّع الأحبة. وقد قال رسول الله ﷺ

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.
(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.
(٣) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.
(٤) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

لجند زيد ومن معه: زيد أميركم، فإن هلك فجعفر بن أى طالب، فإن هلك فعبد الله بن رواحة. فغزا زيد الروم وأقحم فى قتالهم، وتصيبه الطعنات والضربات والجراحات فلا يرجع ولا ينثنى ابتغاء مرضات الله ونصرة لرسوله إلى أن قتل، وقتل بعده جعفر بن أبى طالب، وبعدهما ابن رواحة، فى القصة المعروفة، ونال رسول الله ﷺ من فقدهم ما يألم له الألم المعروف. وأسامة بن زيد منزلته من الاختصاص برسول الله ﷺ والقرب منه منزلة أبيه، وكان حبّ رسول الله كما كان أبوه، وكان يقال له إسامة الحب، وقد أمّره رسول الله ﷺ قبل مرض موته على خلق كبير ليخرج إلى الروم فخرج فى خلافة أبى بكر، وغزا الروم وجاهد فى إحياء دين رسول الله ﷺ، وقصد أعداءه وأطاع خلفاءه ﷺ بعده، وجاهد وناصح ومضى لسبيله بعد مضى خلفاء رسول الله لا يرى لما يدعيه هؤلاء أثراً ولا إمارة لا فى حياة زيد ولا بعد وفاته، ولا فى حياة ابنه ولا بعد ذلك، وهم فى المناصحة والألفة والاختصاص والمحبة بعد تزويج رسول الله بزينب كما كانوا قبل ذلك وفى جميع الأحوال، وفى حياة رسول الله وبعد وفاته، وفى حياة خلفائه وبعد وفاتهم، وهناك من أعداء رسول الله ﷺ[1] ..... المعروفة وأعينهم مادة إلى مطعن[2]..... نواعن هذا وهو أنه قد اغتصب رجلاً من خاصته إمرأته فزنا بها وقبله لعداوته له، وهو يدعى النبوة والأمانة وأنه اختاره بأمانته وثقته على الخلق أجمعين، وأنه وحده صفوة الله وأنه لا نظير له فى ذلك إلى يوم القيامة، فأين كانوا عن هذا، وأين كان الصحابة الذين قد اتبعون لأنه نبى وصادق وقد جاءهم بتحريم الزنا وتحريم قتل النفوس بغير حلها، فإن قالوا: قد تكلموا وقد أنكروا، قيل لهم: لو كان كذلك لجاء مجئ أمثاله، ولا فرق بين من ادعى هذا أو ادّعى أن زيد بن حارثة قد تكلم فى ذلك وضج وخطب وصار معه جماعة فى ذلك، وحاربوا وصاروا إلى الروم مجلبين

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

على ر سول الله وراجعين عن دينه، وكذا كانت قصة ابنه أسامة بعده إلا أن هذا قد خفى علينا وخدعنا وظهر لكم أنتم وعرفتموه بفضل عقولكم وفطنتكم، وقد قلنا لكم غير مرة لو اعتبرتم ما جرى على أئمتكم وعليكم من الفضائح مع تستركم بالإسلام وأنكم من الفاطميين لكفاكم فى الدلالة على نبوته ﷺ وأنتم تدّعون ما هو فى الظهور أعظم من هذا، من أن فاطمة عليها السلام ضربت وقتل جنينها فى بطنها جهاراً بمشهد من العباس وعلىّ وجميع بنى هاشم وبمشهد من المهاجرين والأنصار وهم أكثر ما كانوا وأوفر، وهذه وقعة أعظم من وقعة كربلاء، ومن شهدها أكثر فكيف لا يدعون على رسول[1].....

نجد أن أبا بكر وعمر وبني هاشم [2] .....

بين زيد وأسامة ورسول [3] .....

بعضاً كما قد تقدم شرح ذلك حتى ينقل علىّ بن أبى طالب إلى عمر أم كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فيزوجه ويفترشها ويولدها، وهذا الذى زعمتم أنه ضربها وقتل جنينها فى بطنها، وقد قلنا فيما تدعونه من البقية وجوهاً فى بعضها كفاية.

وتدّعون أن أبا بكر أنفذ المغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير الأنصارى فى قتل سعد بن عبادة الأنصارى وهو سيدهم فقتلاه وهذا أظهر مما ادعيتم فى زيد، فكيف لا تدعون ذلك وقد ادعيتم ما هو أظهر منه. ونحن نجد الخزرج رهط سعد بن عبادة أطوع الناس لأبى بكر وعمر، يعتقدون إمامتهما ويترقبون إلى الله فى الجهاد معهما، حتى أن قيس بن سعد وسعيد بن سعد من أخص الناس بهما ومن أنصارهما وأمراء سراياهما، فما بال متأمل ولا

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٣) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

تدبر متدبر إلا وجد من الأدلة على أكاذيب هؤلاء وأكاذيب أسلافهم الذين قدمنا ذكرهم كهشام وأتباعه.

ومما يخدعون به المترفين والمستجيبين لهم بأن يقولوا: هل علمتم لم حرم محمد أزواجه أن ينكحن بعده، ولهذا سر لطيف باطن خفيّ وهو أن أزواجه قد كن وقفن على سحره وحيله فخاف أن يتزوجهن أحد بعده فيتحدثن بذلك لما فى النساء من الرقة والضعف فعلم هو بهذا فحرمهن، وهذا من حكمته وفطنته، وقلنا قبل كل شئ من أين لكم صحة هذه الدعاوى، أهو شئ علمتموه بالخبر والنقل أو بالإلهام[1].....

مسائلكم وشبهكم ليست من شبه[2].....

..... الزيالين والكساحين، ولعمرى إن من كان قادته وسادته وأئمته الذين قدمنا ذكرهم وسيرتهم ومن لهم مثل هذا العزيز فهكذا تكون شبهه ومسائله ودعاويه وحججه، وقد حرم ﷺ على الرجال أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم وعماتهم وخالاتهم وبنات الأخ وبنات الأخت، فإذا إنما حرمهن لمقل ما قلتم وهو السر اللطيف والباطن الخفى هاتوا حكمتكم وفطنتكم.

ثم نسائلكم ونقول لكم: قولوا لنا ما هذه الحيل وما هذا السحر والذى وقف عليه النساء، اذكروه لنا، فإن قالوا: ما ظهر ولا عرفناه، قلنا: فما يدريكم أن التحريم كان لهذا، وإن قالوا ظهر، قلنا: فما أغنى تحريم الأزواج شيئاً، وهاتوا هذا الذى وقفتم عليه فإنكم لا تذكرون إلا ما يشبهكم ويشبه أسلافكم، فأما هو ﷺ فأمره فى الظهور والانكشاف والبعد من كل ريبة كما قدمنا وذكرنا.

والعقلاء يزدادون بصيرة فى أمره ﷺ، أنه جمع بين الضرائر من بنات

---

(١) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٢) بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

الأعداء والأولياء وفطمهن من الدنيا، ومما تتناوله يده، وكذا صنع بأهله، وإن هذا الإقدام إقدام الأبرياء من كل ريبةج ودنية.

ومن مسائلهم أن أبا القاسم المصرى الإقليدسى المهندس النازل فى قطيعة النصارى، المنقطع إلى[١].....

جميلة كا نت[٢].....

فما تعرفها فيقو[٣].....

عقيب هذا و[٤].....

من المسلمين، ويذهب فى هذا أن أمرأة كانت تختلف إليه ﷺ فى الريب، فيخدع أصحابه وأزواجه بقوله: هى العافية، وكا ن هذا من أكبر المطاعن عبيه عندهم، وسرورهم بها أتم السرور.

ومن عجيب أمرهم أن رؤساءهم وأهل العقل منهم إذا افتضحوا يأخذون[٥] فى الصلاة عليه والوصف له بالحكمة ووفور العقل وملك النفس وطول الصبر حتى لم يفتضح، وأنا من أولنا إلى آخرنا مع التستر به نفتضح فى كل طرفة عين.

فانظر إلى اختلاطهم وحيرتهم وفضيحتهم فى كل ما يأتون به ويتعرضون له، وكيف ينقضون على أنفسهم ويكذبون أقوالهم بألسنتهم.

ثم يقال لهم: هذا رجل قد أسخط الأمم وعاداها وغاضبها وأغضبها، وادّعى رئاسة ليس فوقها رئاسة لمخلوق، وفرض طاعته، وألزم الناس إقامة شرائعه وإنفاق أموالهم فى إحياء دينه وسفك دمائهم فى مجاهدة عدوه، وكلف تلك التكاليف الشاقة الصعبة الذى قد تقدم شرحها، وقال إن من أنكرها أوتسخطها كفر بالله وحل دمه، وكان له فى الآخرة العذاب الدائم.

(●) ١،٢،٣،٤ بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

(٥) في المخطوط: «ياخذوا».

وأتباعه إنما أطاعوه لأنه عندهم نبى صادق، وتقربوا إلى الله بما أصابهم فى اتباعه على ما قد تقدم من شرحه، وهو بزعمكم يكذب ويناقض فى الآيات والأحاديث[١].....

..... ليزنى بنسائهم[٢].

..... عن تدبيره ولا ينفر[٣]....

..... لا يستوحش

منه خاصته وبطانته، وقد اختلف على الرؤساء وعلى من لم يدع ما ادعاه بأقل القليل كما شرحنا وقدمنا من المحققين والمبطلين، وسلم هو هذه السلامة التامة، وكان له أصحابه فى حياته وبعد موته، إن هذا لهو أكبر معجزاته وأعظم آياته وقد انتقضت العادات فى هذا أيضاً كما انتقضت فى غيره فهذه شهادة منكم له يتأكد بها حجته عليكم.

وينبغى أن تعلموا أن الآيات التى يسأل عنها هؤلاء وأمثالهم من أعدائه ﷺ، والأحاديث التى صحت عنه ما أراد بها ما يظنونه ولا ما يذهبون إليه، إذ لو كان كذلك لكان أولئك الأعداء الذين كانوا معه وفى بلده وفى زمانه من قريش والعرب واليهود والنصارى، وأحوالهم فى الفطنة والعداوة والدهاء والكيد ما قدمنا وشرحنا، يقولون بذلك ويحتجون به ويجادلونه ويجادلون أصحابه، وكان هذا أسهل عليهم مما تكلفوه من إبطال أمره وإطفاء نوره وتفريق الناس عنه بمفارقة أوطانهم وإنفاق أموالهم وسفك دمائهم، وبهذا الاحتجاج كان أبو الهذيل والشحام يسكتون الخصوم.

وابن الراوندى والحداد والوراق[٤]..... رسول الله ﷺ

ليس من يطعن عليه[٥].....

ذلك عليه وتحت[٦].....

على الشدائد من[٧].....

(●) ١،٢،٣،٤،٥،٦،٧ بياض في المخطوط حوالي نصف سطر.

من البلاغة فيجد[١].....

واسع الحلم، عنده من الصبر ما ليس عند غيره، لهذا ضبط نفسه من أول أمره وقبل ادعاء النبوة، فما عرفوه إلا بالنزاهة والطهارة والثقة والأمانة، فكان يعرف عندهم بمحمد الأمين، فبفضل العقل تم له ما تم، واسترت عيوبه وحيله، وإن لم نقطع عليه فنحن نجوزه، فأخرجوا معشر المعتزلة هذا التجويز من قلوبنا وإن كان ضعيفاً، ذكر هذا المعنى ابن الراوندى فى الفريد فى غير موضع منه. فيقال لهم: إن هذا الذى ذكرتموه فإنما المعنى فيه شهادتكم له بالمعجزات والآيات التى لم تجدوا فيها مطعناً فعبرتم عنها بفضل العقل والحزم والصبر والحلم وقد سلمتم سلامته من كل فضيحة.

وقولكم إنه منذ أول أمره كان أحس بفضل عقله وصبره وحزمه وفصاحته فأمسك عن ذلك ولم يظهره إلى وقت ادّعى فيه النبوة، كما ادّعى عليه وله أنه ولد كامل العقل وافر الحلم، وأنه أحس بذلك من نفسه فلم يظهره إرصاداً للنبوة، وأظهر التصابى[٢].....

وقد كان ﷺ[٣].....

يقصد إلي [٤]

حالهم [٥]

يحيط بهم [٦]

واحداً[٧]

له علي أن[٨]

الله اختارنى وحدى على العالمين إلى يوم القيامة، أن أحداً لا يأتى بمثل ما معى ولا بمثل سورة منه إلا وهو على يقين أن أحداً لايأتى بذلك. هذه قضية العقل، فتعلم أنه قد كان على يقين أنهم لا يأتون بذلك ولا بما يقاربه،

---

(٥) ١،٢،٣،٤،٥،٦،٧،٨ نقص في المخطوط حوالي ثلاثة أرباع السطر.

وقد تقدم نظير ذلك، وإنما يقال فيمن أراد السلامة من الناس فطلب رضاهم، وانحط فى هواهم، وتجنب ذمهم وسخطهم، وتودد إليهم بما يهوونه أنه عاقل، وقد سلم من ذمهم بعقله، كما قيل استحق اسم العقل من رضى عنه الجميع المختلفون.

وهذا ﷺ أتى بما يسخط الأمم كلها فأكفرها وشرع جهادها، وفرض فتالها وقتلها، واستباحة حريمها وسبى ذريتها، وإهانة ملوكها وجبابرتها، حتى كذبوه وشتموه وضربوه وحصروه وأجاعوه وطلبوه نفسه وقتلوا أتباعه وبذلوا الوسع كله فى مكارهه، إلى غير ذلك، فكيف يقال فى هذا ﷺ أنه ناله من[1].....

فإذا حصل فعلوا فيه فعل طلاب الدنيا كما فعل غيرهم ممن قدمنا ذكره فما منهم أحد فى ابتداء أمره وفى أول طلبه إلا وقد تودد إلى العامة بأنه يريد الدين والدار الآخرة، فإذا قدر وملك واستولى أثر فى نفسه وأهله وولده وتنعم وتمرغ فى الدنيا، فكيف انتفضت العادة بهؤلاء ولو ادّعى مدع فى زهد رسول الله ﷺ ومنعه نفسه وأهله وولده وكذا فى علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه مثل ما ادّعيتم فى هؤلاء كان يكون الجواب فيه إلا الجواب فى هؤلاء.

وأخرى أنكم معشر الإمامية تدّعون أن رسول الله ﷺ نصّ نصوصاً تلزم الخاصة والعامة والرجال والنساء والأحرار والعبيد والمرضى والأصحاء والمقيمين والمسافرين، وأنه عليه السلام بينّ لهم هذا الفرض وبلّغهم إياه بحسب وجوبه وشموله وعمومه، فأعلمهم إياه، وجعلهم على يقين من وجوبه. وأن هؤلاء اغتصبوه ﷺ مصلاه ومقامه فى حياته وفى بيته ونصب عينيه وبحضرته وبحضرة أهل بيته وخاصته[2].

حياتهم وبعد موتهم، كما قد بينا من إنفاد وصية أبى بكر وعمر فامتثلوا ذلك كله حتى أن من يدعون النص والإمامة دخل فى ذلك وأظهر المسع

(●) ٢،١ نقص في المخطوط حوالي نصف سطر.

والطاعة لهم فى حياتهم وبعد موتهم خوفاً من أتباعهم وشيعتهم وأنصارهم، فمن بقى يتقونه أو يخافونه أو يجدعونه، وكل شئ قد ادعوه ودعوا إليه قد أجيبوا إليه، وقد أطيعوا فيه بغير حجة بزعمكم، مع علم الناس أن ذلك خلاف رسول الله ﷺ وخلاف دينه، إذ هو من الفروض العامة، وهم يأخذون الناس بحب رسول الله ﷺ وموالاته وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وهم بزعمكم يبغضونه ويعادونه ويبغضون من أحبه ووالاه، ومن كان يوالى ويحب، فهل سمع بأعجب من أمر هؤلاء القوم فيما يدّعونه، فبخلاف العقل والنقل والأثر كدعوى الملحدة على رسول الله ﷺ.

ومما يصول به هؤلاء الدعاة وأتباعهم من المتصلة بالشام ومصر أن يقولوا للمسلمين: اسمعوا منا ما نقوله فى إلهكم الذى تعبدونه ثم.....[١]

يطول شرحه[٢]

وفعل فإن الحا[٣]

إن ما لكم اله[٤].

ففيه تبارك[٥]

السموات والا[٦]

حلماً عنهم ورحمة وإمهالاً لهم ليتوبوا، وأنهم إنما ينقلبون فى قبضته وبقدرته التى أعطاهم لطاعته، أو لم ينظروا إلى الجبابرة والفراعنه كيف اصطلمهم؟ «هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً».

ومما يغيظهم فى شأن رسول الله ﷺ أن يقولوا: انظروا إليه كيف لم يبشر بأحد بعده، ولا علق القلوب بمن يأتى بعده كما فعل من كان قبله من إبراهيم، وموسى، وعيسى، وأمثالهم، فطم الناس كلهم وقال: لا نبىّ بعدى، فصار من يدعى هذا قد أكفرته أمته وبادروا إلى قتله، فهذا الحسد والشره.

(●) ١،٢،٣،٤،٥،٦نقص في المخطوط حوالي ثلاثة أرباع السطر.

فيقال لهم: إبراهيم وموسى وعيسى وأمثالهم كذابون عندكم أصحاب حيل وطلاب رئاسة، وما هاهنا عندكم رب ولا نبى ولا باعث ولا مبعوث، ومن قال إنى رسول الله فقد كذب عندكم، ومن قال يأتى من بعدى رسول الله فقد كذب عندكم، فكأنكم عتبتم عليه إذ لم يكذب ولم يزد فى الكذب، هذا على[١] شرا..[٢] اليـن من بعده[٣] كما قال[٤] سود[٥] به فافتضح[٦] ابن خـويلد[٧] وكاهناً[٨]

فأرسل إليه أبو بكر الصديق بمن يجاهده، وأحاطوا به، فقال قومه: أين ما كنت تعدنا من النصر والظهور، فأردف.....[٩] وقـال لأصحابه من استطاع أن يكون هكذا فليفعل وولى هارباً [فتغلب عليه][١٠] أصحاب أبى بكر الصديق رضي الله عنه فأخذوه أسيراً وأتوا به أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

هذا آخر ما وجدته فى النسخة التى نقلت منها

.....[١١] إن شاء الله أن عليه بل

كتابة بغير تحيز، ومن أراد تحصيله العبد الفقير إلى الله على بن محمد

(●) ١،٢،٣،٤،٥،٦،٧،٨ نقص في المخطوط حوالي ثلاثة أرباع السطر.

(٩) بياض في المخطوط.

(١٠) ما بين القوسين ليست في المخطوط.

(١١) نقص في المخطوط.

obeikandl.com

بن على بن عبد الروحمن البكرى فى ربيع الأول سنة (.....)[1] وستمائة. وهو يتوسل إلى الله عز وجل بجاه محمد ﷺ أن يجعله من المتقين حتى يتوفاه على ذلك ويبعث عليه إن شاء الله تعالى. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله

(١) بياض في المخطوط.

obeikandl.com